الفصل الأول

الوقائع والأفكار الاقتصادية
في عهد الرّسول صلى الله عليه وسلم

المبحث الأول : في القرآن الكريم.

المبحث الثاني : في السنة النبوية.

obeikandl.com

المبحث الأول

الوقائع والأفكار الاقتصادية في القرآن الكريم

"مبادئ اقتصادية من القرآن الكريم"

1 ـ معاني الاقتصاد في القرآن الكريم :

ذُكرت كلمة اقتصاد، بأحد مشتقاتها العديد من المرات في القرآن الكريم، وقد أخذت هذه المشتقات معاني متكاملة، نبيّنها خلال ما جاء في الآيات التالية :

يقول تعالى : [**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ**].[1] ومعنى أمّة مقتصدة في الآية، أنها أمة تلتزم الاعتدال وحد الوسط عند أدائها لوظائفها المختلفة، فلا إفراط ولا تفريط فالاقتصاد في هذه الآية يحمل معنى الاعتدال.

يقول تعالى في آية أخرى: [**وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**][2] وقصد السبيل هو الطريق الأقرب المستقيم، أي الأقل تكلفة وعناء. أما السبيل الآخر فهو الطريق الملتوي المعوج.

يقول القرآن كذلك : [**لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ**][3] ومعنى سفرا قاصدا في الآية أنه سفر له مردود مادي قريب وفيه حسابات دنيوية تتعلق بالثراء والغنى.

وفي وصية لقمان لابنه، يقول تعالى: [**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ**][4] أي تواضع ولا تكن متكبرا فخورا، بل انظر إلى جوانبك ولا تضر من حولك بالاختيال والتعال، بل كن إنسانا اجتماعيا يعرف قدره وقدر غيره فيحترم نفسه ويحترم غيره.

وفي قوله تعالى : [**وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ**][5]. وفي هذه الآية جاءت كلمة مقتصد بمعنى معتدل يعترف بخالقه ولا يتنكر له، إنه يشكره ولا يكفره، فهي هنا نقيض للجحود وعدم الاعتراف.

وفي سورة فاطر جاء قوله تعالى : [**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**][6]. وكان لمعنى مقتصد في هذه الآية الوسط الذي لا يميل ولا ينحرف عن الطريق السوي الذي ارتضاه الله لعباده.

ومن الآية السابقة استخلص بعض الكتاب أن المعنى الإسلامي لكلمة الاقتصاد هو أن لا إفراط ولا تفريط ولا مغالاة ولا تقصير، إنهم يرون أن الاقتصاد هو الاعتدال في السلوك ومن هؤلاء حمزة الجميعي الدموهي[*].

---

[*] يعرف حمزة الجميعي الدموهي الاقتصاد فيقول هو :"الاعتدال في التفكير والسلوك بالتزام الحد الوسط في كل مجهود يبذله الإنسان ماديا أو ذهنيا، فرديا أو جماعيا لإشباع حاجاته الروحية والمادية المشروعة ليكون وسيلة إلى معرفة الله وعبادته".

نعم قد يكون للاقتصاد معنى الاعتدال مصداقا لقوله تعالى:[**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا**][7] وكذلك قوله تعالى : [**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**][8]. في مجال الاستهلاك فإنه لا يصلح إلا المعنى الذي أورده القرآن للاقتصاد. فلا يعقل أن يستهلك الشخص أو البلد كامل دخله، إن الضرورة الاقتصادية تقتضي من الشخص أن يدخر من دخله لسد حاجاته أو تحقيق مشاريعه، أما البلد فإنه بحاجة ماسة إلى توظيف جزء من دخله في عملية التراكم أو الاستثمار لتحقيق عملية التنمية، ومن هنا فإن الاعتدال يكون بحق مقابل لمعنى الاقتصاد.

إن عملية الإنتاج كذلك تتطلب الاعتدال حتى لا يحصل عجز أو فائض تنشأ عنه أزمة معينة، فالعجز في الإنتاج يترتب عنه زيادة الطلب عن العرض ومن ثم حالة للتضخم تنشر الغلاء والفقر. أما الفائض في الإنتاج فيؤدي إلى تعطيل آلة الإنتاج وكفها عن الاشتغال، لأنه لا يعقل أن ننتج بدون خطة ومن دون الحاجة، هكذا يتضح أن عملية الإنتاج تتطلب وسطية واعتدال.

ويمكن أن نقول أن الاقتصاد هو حسن التصرف والتدبير في إنتاج الطيبات والمنافع وتداولها. كما أن قصد السبيل هو حسن اختيار الطريق الأقرب، غير الشاق وغير المكلف، كذلك فالاقتصاد يعني حسن تدبير إنتاج الثروة وتوزيعها وفق ما يحقق رخاء الأمة وبأقل التكاليف المادية والمعنوية.

2 ـ المشكلة الاقتصادية في القرآن :

إن المشكلة الاقتصادية في نظر الاقتصاد الوضعي تكمن في ندرة الموارد أو الخيرات الاقتصادية، فلو كانت الخيرات الاقتصادية متوفرة ومتوزعة بشكل يسمح لكل فرد من إشباع حاجاته دون عناء وبالكمية التي يريد لما كانت هناك مشكلة اقتصادية، ولما كانت هناك حاجة للدراسة الاقتصادية. فالهواء مثلا، رغم حاجة الإنسان الجد ضرورية إليه، فمن دونه لا يستطيع الإنسان العيش، فإنه لم يشكل ذات يوم مشكلة للإنسان لتوفره دون عناء الناس، بينما ندرة الموارد الاقتصادية الأخرى جعلت الإنسان يعني بدراسة كيفية إبداعها وتوزيعها لإشباع حاجات الناس ومن ثم كان علم الاقتصاد.

أما القرآن فالمشكلة الاقتصادية فيه ليست في الندرة، يقول القرآن الكريم بهذا الصدد: **[إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ]**[9]، ويقول كذلك في آية أخرى: **[وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ]**[10]. من الآيتين السابقتين يتضح أن المشكلة في القرآن ليست في الندرة، لأن الله تعالى قد تكفل بضمان الرزق لعبـــاده في الدنيا بشكل يكفيهم جميعا لو اتبعوا أوامر ربهم وهديه، ويؤيد هذا الأمر قوله تعالى كذلك : **[وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ]**.[11]

إن الناس لو اتبعوا هدي الله تعالى وتخلصوا من أنانيتهم وحبهم المفرط للمادة والذات لتجنبوا مشكلة الجوع والعري (الندرة)، فتصوروا أن شعوبا تقوم بحرق منتوجها ورميه في البحار حتى تضمن أسعارا عالية لمبيعاتها، بينما شعوبا أخرى لا يتناول أفرادها وجبة في يومين أو

ثالث. إن ما يبذر ويرمى في مناطق من الدنيا لكاف لسد رمق بطون تطوى في مناطق أخرى.

ويتضح الاختلاف في النظر إلى المشكلة الاقتصادية من خلال نظرة القرآن ونظرة الاقتصاد الوضعي إلى المشكلة السكانية (النمو السكاني) وعلاقتها بالناحية الاقتصادية.

لقد كان لدراسة "مالتيس" الأثر الكبير في إبراز مشكلة النمو السكاني، فهو يرى أن نمو السكان يتزايد على شكل متوالية هندسية بينما النمو الاقتصادي لا يتزايد إلا على أساس متوالية حسابية. لهذا اقتنع هذا الكتاب ببروز ظواهر المجاعة وتفاقمها مستقبلا لأن نمو السكان سيفوق بأضعاف كثيرة المحاصيل الغذائية، ومن ثم تزداد المجاعة وقد تزداد معها الحروب. ولقد شكل هذا الاقتناع عند البعض الآخر، حافزا للبحث عن حلول ناجعة للكارثة، فظهرت فكرة تحديد النسل التي لاقت تأييدًا كبيرا يعادل الاقتناع بالنظرية نفسها.

لكن القرآن له نظرته الخاصة للمشكلة السكانية ومشكلة الغذاء. بالنسبة لمشكلة الغذاء وندرته نعيد ذكر الآيتين، إذ يقول تعالى : **[إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ]** [12]، ويقول: **[وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ]** [13]، إذا فالمؤمنون بالقرآن لا يخافون مشكلة نقص الغذاء إذا احترموا سنن الله واتبعوا هديه، لذلك فمشكلة تزايد النسل لم يؤيدها القرآن، بل خالفها.

يقول القرآن الكريم: **[وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا]**[14]. فالآية تطمئن من خشية الفقر، وتعد الناس برزق كاف من الله تعالى يكفي الآباء والأبناء، ومن ثم

فالتفكير بتحديد النسل خوفا من الجوع والفقر يعدّ ادّعاء باطلا، لأن الله تكفّل بما يكفي من على الأرض جميعا، أما ظواهر المجاعة والفقر في العالم فأسبابها تعود إلى الأنانية وحب الشهوات والحياد عن هدي الله وترك سننه.

وقد أكد القرآن على القضية في عدة آيات منه، إذ يقول في آية أخرى: **[وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ]**(15) ويقول في آية أخرى: **[قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ]**(16). هذه الآية الأخيرة تغلط المؤمنين بفكرة تحديد النسل، والخوف من الجوع، وبعد ذلك العمل سفاهة ليس لها سند من علم في نظر القرآن تلك النظرية كلها أوهام ليس لها أساس من الصحة.

إن الشيء الملفت للنظر، هو أن القرآن جاء من حوالي ما يفوق أربع عشر قرنا، وإن المشكلة السكانية لم تستفحل إلا على يد "مالتيس" في القرن الثامن عشر ميلادي، مع ذلك فإن القرآن كأنه يجادل ويحاور أصحاب هذه المالتسية. وكأن القرآن يعلم أنه بعد حوالي ثلاثة عشرة قرنا ستظهر نظرية سكانية خاطئة وإنه يردّ عليها مسبقا. أما إذا تصورنا أن النظرية كانت مطروحة وقتذاك، كذلك فهذا يعني أنه مر على أوهامها وتنبؤاتها 13 قرنا دون أن تتحقق. ولا يخفى على أحد أن وفرة الإنتاج الحالي وتنوعه تفوق بكثير ما كان عليه الإنتاج ذلك الوقت. إن مشكلة الندرة في حد ذاتها تكمن في اتباع هدى الله وسننه مصداقا لقول الله تعالى: **[وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ**

obeikandl.com

مَا يَعْمَلُونَ][17]. المشكلة أن كثيرا من الناس ساء ما يعملون، وهو حل المشكلة الاقتصادية في القرآن الكريم كما سنرى.

يقول القرآن الكريم عن الإنسان : **[إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا]**[18]. نعم إنها طبيعة الإنسان، لا يكتفي بحد من الغنى والامتلاك، بل دائما يقول هل من مزيد، كذلك فإنه لا يصبر على الابتلاء إذا مسه.

فمهما بلغ ما عنده من خير فإنه لا يقنع بل يريد أن يكون له كل شيء ولا يهمه بأي طريقة يصل إلى غرضه هذا، وأثناء سعيه هذا فإنه ينسى حقيقته وينقطع عن هدي ربه إذ يقول القرآن الكريم : **[أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ]**[19]؛ والإنسان الذي يلهيه التكاثر هو الإنسان الذي لا يبالي أن يكون ما جمعه حقا له أو لغيره، إنه غفل عن هدي الله فاغتصب الحقوق وظلم غيره.

تقول الآية : **[زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ]**.[20]

لم يعالج القرآن المشكلة علاجا سطحيا، بل أراد أن يعالجها من أصلها، وذلك بتصحيح نظرة الإنسان نفسه إلى الدنيا والآخرة. فإذا ما وقرت حقيقة الدنيا في عقيدة الإنسان، وآمن بالآخرة وفضلها لم يعد يتكاثر من أجل التفاخر والتكاثر، بل سيكون سعيه لوجه الله ولفائدة المجتمع.

يقول تعالى : [**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**][21]. كما يقول : [**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**][22]، بهذين الآيتين وغيرهما يبين الله فضل الجنة ونعيمها عن الدنيا وما يكسبه المرء فيها. فزينة الدنيا لا تدوم، أما نعيم الآخرة فما له من نفاد وأن من أراد الآخرة فليعلم أن جمع الأموال لن يبلغه إياها، بل عليه ببذل ماله في أوجه الخير والصلاح، ونجدة المحتاجين، يقول القرآن الكريم: [**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون**] الآية/15 من سورة الحجرات.

إن الإنفاق في سبيل المجتمع والقضاء على الفقر والاحتياج هو الطريق لعلاج المشكلة الاقتصادية. فالإنفاق يعمل على إعادة توزيع الثروة حتى لا يكون المال حكرا على فئة قليلة من الأغنياء مصداقا لقوله تعالى: [**كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**]. الحشر الآية 07. وهو الهدف المنشود في القرآن الكريم من علاج المشكلة الاقتصادية.

3 ـ العمل في القرآن الكريم :

ما يميز بين البشر في الإسلام هو العمل وحسبه فقط تتحدد قيمة المرء في الدنيا، وفي الآخرة، وتتحدد مكانته وجزاءه. فخلق الإنسان ومجيؤه إلى الدنيا ليست له غاية غير النظر إلى ما يأتيه من عمل لقوله تعالى: [**لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**][22]، فالحياة حسب القرآن اختبار لعمل الإنسان.

فإذا عمل الإنسان لخير البشر وصلاحهم سمت قيمته عند ربه حسب عمله ولقيه وهو عنه راض، أما إذا أتى من العمل سيئه وشره لقي الله بعمله ذاك لينال الجزاء العادل لقول الله تعالى: **[فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه]**.[23]

والعمل المقصود هنا لا يقتصر على إتيان الشعائر التعبدية، بل هو يفيد أكثر عمل الدنيا الذي يحتاجه المسلم، وغير المسلم، العمل الـــذي يستفيد منه خلق الله دون تمييز. لهذا الغرض نجد القرآن الكريم يوجـــه الإنسان للاستفادة والاستمتاع بما في السموات والأرض حيث يقول الله عز وجل: **[سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ]**[24]، **[سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ]**[25].

كذلك يقول تعالى: **[هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ]**[26]. فالله عز وجل ذلل الأرض للإنسان وحثه على كشف خباياها وخيراتها والتمتع بذلك، كل هذا يؤكد على أن العمل المقصود لا يقتصر على ما اكتسى صبغة دينية محضة فقط من العمل، بل يشتمل على الضرب في الأرض والسعي على العيال وكذلك العمل لفائدة البلاد والعباد، لذلك قال تعالى : **[فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ]**.[27]

والحقيقة أن الغاية من الإسلام وبعثه الرسل في كل عصر ومصر كانت دائما الحث على العمل الصالح والنهي عن الشر والمفاسد، غير أن كل هذا يصعب تحقيقه إلا في عقيدة الإسلام، فالإسلام إيمان بالله وبالرسل وبالجزاء عن العمل، وحتى يصلح عمل الإنسان لابد له من

العقيدة ولابد له من الإيمان، عندئذ يفلح الإنسان في الدنيا وفي الآخرة وذلك مصداقا لقوله تعالى : [**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**][28].

العمل الصالح بالمال والنفس في سبيل الله لصالح البلاد والعباد، شرط من شروط الإيمان، فإذا أمسك الإنسان عن فعل الخير، وقعد عن العمل والجهاد بالمال والنفس لفائدة أمته ضعف إيمانه وربّما انعدم، وذلك بقدر تفريطه في العمل. لقد وصف الله المؤمنين فقال: [**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ**].[29]

نعم إن العمل دليل على الإيمان ويؤكد هذا حديث رسول الله (ص) إذ يقول : "الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل" وعليه فإن فلاح الإنسان وفوزه يوم الجزاء لا يكون إلا بالإثنين معا: الإيمان والعمل وفي هذا الصدد قال تعالى: [**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**].[30]

إذا فالضرب في الأرض، وخلق المنافع والخيرات، وتسخير النفس والمال للبناء والتعمير أعمال يحبها الله ولا يضيع أجرها، وهي شرط لكل من أراد أن يلقي ربه لقاء حسنا. لقد جاء في كتابه العزيز : [**إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً**].[31] [**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا**].[32]

بعد هذا هل يصح قول قائل بأن الإسلام، وكتابه القرآن، دين عائق للنشاط ومثبط للنمو، كيف يصح هذا والإسلام دين قد يفوق فيه أجر السعي والضرب في الأرض أجر العابد والناسك!؟ لقد جعل الإسلام العمل الصالح محل المنافسة الطيبة التي تدفع الأمة إلى الأمام وتساعد على البناء والتشييد فقال تعالى: **[وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ]**[33] فالعمل حظي بمكانة جليلة في الإسلام، إذ جعل شرط لاكتمال الإيمان والفوز بمرضاة الله. ولقد حرض القرآن المؤمنين به على العمل، ورغب لهم فيه فقال تعالى : **[وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ]**[34]، وبين لهم فضل العمل على القعود فقال كذلك : **[فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ]**[35]، والجهاد في القرآن الكريم أوسع من معنى القتال فهو العمل بكل أنواعه، سواء في الصناعة أو الزراعة أو الخدمة، فكل ذلك جهاد.

فالقرآن ترغيب ودعوة للعمل الصالح، فبالعمل والعمل فقط يتميز الناس في نظره بعضهم عن بعض، وهذا ما يؤكده تبارك وتعالى في قرآنه إذ يقول: **[يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ]**.[36] والتقوى هنا، ليست إلا العمل الصالح الذي يتفجر عن الإيمان بالله، والإخلاص له، وبالعمل فقط يزكى إيمان المرء، ولا دليل لإيمان بلا عمل.

لهذا نجد القرآن الكريم ينفر من القعود ويجلي حقيقة الإيمان لمن أساء فهمه، اعتقادا بأن الإيمان هروب من الدنيا ومن فيها وخلوة واعتزال، وحتى جوعا وقساوة عيش، فحتى ينبههم القرآن لخطئهم هذا ويردهم لجادة الطريق راح القرآن يتسأل في استغراب عن مصدر

اعتقادهم هذا فقال: [**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**][37]. إن زينة الدنيا وطيب العيش مما أحله الله وارتضاه لعباده المؤمنين قبل غيرهم، لكن من آياته أن جعل العمل وحده هو الطريق لنيل ذلك، ويتساوى في هذا المؤمن وغير المؤمن دون تمييز.

صحيح أن الله يرضى بطيباته وخيراته للمؤمن قبل غيره، وهذا ما تدل عليه الآية، لكن أي إيمان وأي مؤمن؟ إن الله يرضى بذلك لعبده العامل الكاد الذي يكدح فيبارك له ويزيد عطاؤه، ولا عطاء بدون عمل، وكل ما يناله القاعد ناله دليلا حقيرا مما جاد به غيره. فهذه مريم عليها السلام لم يرد لها ربها أن تنال إكرامه إلا بالعمل، فقال لها في قرآنه الكريم: [**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا**][38] أي اعملي، ولقد كان قدرته عز وجل، وهو الذي يقول للشيء كن فيكن، أن يطرح أمامها هديته هذه دون أدنى عمل، لكنه طلب العمل لغاية أرادها؛ تعليم عباده أن العمل أساس ومصدر كل نعمة وطيب ينالونه.

وبعد أن صحح القرآن ذلك الاعتقاد الخاطئ السلبي الذي يقطع الإنسان عن الدنيا وطيباتها، راح يدعوه إلى عمل الدنيا المرتبط بالسمـــاء فقال له: [**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا**][39]، فما خلق السماوات والأرض إلا تسخيرا من الله لعباده لينالوا الطيبات وتعمهم الخيرات مصداقا لقوله تعالى: [**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**][40].

يقول الله تعالى في قرآنه الكريم: **[وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ]**[41]، فإقامة الدين في التوراة والإنجيل وكذلك القرآن نظر في السماء وضرب في الأرض، كدح وعمل صالحان تتفجر عنهما الأرض والسماء خيرات وطيبات، وما ينزل الفقر والذل بالعباد إلا القعود عن العمل، أو إتيان للظلم والعمل السيء لا غير.

4ـ إتيان حقوق العاملين في القرآن:

إن حق العامل في الأجر العادل بيّن في نصوص القرآن الكريم، فحسب العمل يكون الأجر وذلك تحفيزا للعمال على بذل مجهود أكثر، والخوض في المنافسة الشريفة البناءة. يقول الله عز وجل: **[وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ]**[42]، هذه الآية تبين أنه من الحق والعدل أن يوفى العمال أجورهم كاملة من غير إجحاف أو ظلم، فأجر العامل تحدده نوعية وكمية عمله، وعليه تتباين أجور العمال حسب العمل الذي يقدمونه وذلك تماشيا مع مبدإ العدالة واجتنابا للظلم. كذلك فإن الارتقاء في سلم المسؤوليات، وتولي المناصب الحساسة لا يكون إلا وفقا لسيرة العمل الشخصية للأفراد، فبالعمل الصالح الكفء فقط تتحقق ترقية الأفراد للمناصب العليا مصداقا لقول الله تعالى: **[وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا]**[43]. فدرجة مسؤولية الفرد في عمله يحددها إخلاصه وكفاءته.

إن مبدأ القرآن في مكافأة العمال لا يتفق والأجر الثابت الموحد لكافة العمال، إذ أنه يرسي مبدأ يفجر طاقات العمال وينمي فيهم روح التنافس والمبادرة، فالذي يشتغل أكثر من الآخرين ويتقن عمله ويتنافى في أدائه يكون له أجر أكثر مصداقا لقول الله تعالى: [**فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**] (44). أي أن القرآن لا يتغاظى عن المخلصين في العمل الذين يشتغلون أكثر من غيرهم، ويتفانون في أداء عملهم، فهؤلاء العمال يأمر الله عز وجل بعدم بخسهم حقوقهم، بل يأمر بإتيانها كاملة وذلك تشجيعا لهم ولمن أراد أن يكون مثلهم. في آية أخرى يقول القرآن: [**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً**](45) كسابقتها تشجع على التفاني في العمل وأدائه على أحسن وجه.

إن الإنسان هكذا جعله الله : يحب أن يكافء بعدل كما يحب المنافسة الشريفة التي دله الله عز وجل عليها، إذ قال : [**وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ**] (46)، وخالق الإنسان أعرف بما يصلحه ويصلح له، فلكل عامل أجره العادل الذي يستحقه: [**فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ**](47)، أي لكل عامل الأجر الذي يناسب مقدار ما أداه من عمل، فالأجور متباينة ولكل عامل أجره العادل.

وكل أجر لابد وأن يقابله عمل ما، فلا محاباة بأموال الشعب والوطن، فمن يعمل لفائدة الوطن والأمة هو الوحيد الذي يستحق الأجر، أما من أخذ أجرا بلا عمل فيعد متطفلا لا خير فيه، أكّالا للسحت وحقــوق الغير هو ومن وافقه على ذلك، يقول الله عز وجل: [**فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا**

سَقَيْتَ لَنَا] [48]. أي أن الأجر الذي سيدفع هو مقابل عمل معين، فموسى عليه الصلاة والسلام كان قد سقى لبنات مدين، فقرر هذا الأخير أن يجزيه فيدفع له الأجر. لو لم يقم موسى بعمل لأهل مدين، لكان ما قام به مدين اتجاهه إحسانا. وبما أنه كان مقابل عمل فهو أجر، فكل أجر يقابله عمل، حتى المرضعات فإن ما يأخذنه مقابل الإرضاع يعتبر أجرا لهن مصداقا لقوله تعالى: **[فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ]** [49].

ولم يميز القرآن بين أجر المرأة وأجر الرجل كما هو حاصل في واقع بعض الدول التي تعد متقدمة. فالتمييز بين المرأة والرجل في العمل، والتباين الحاصل في دفع أجرتهما يعد من مشكلات المرأة الحالية. أما القرآن فربط الأجر بالعمل فقط بغظ النظر عن أن العامل امرأة أو رجل. لقد قال عز وجل في قرآنه: **[مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ]** [50] لا فرق بين الذكر والأنثى إلا بالعمل والعمل فقط.

إن التمايز بين الأفراد في الحياة الدنيا أمر طبيعي يقرره الله عز وجل إذ يقول: **[نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا]** [51]. كما يقول كذلك: **[وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ]** [52]. غير أن هذا التمايز والتفضيل لم يكن اعتباطيا، بل هو أمر تحكمه سنن ثابتة، فبالعمل يرتقي الناس درجاتهم، ويرتضي الله لهم بتلك الدرجات ويدافع عن حقهم

فيها، يقول القرآن الكريم: [وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ] (53).

5 ـ مسؤولية الدولة وتوفير مناصب الشغل:

لما خلق الله عز وجل الإنسان لم يدعه حائرًا، بل علمه الأسماء كلها، ودله على ما يصلح حاله في أمر الدنيا والآخرة، لقد سخر الله للإنسان ما في السماوات وما في الأرض حتى يحصل أو يستخرج منهما ما يشبع حاجاته المختلفة نعم لقد وفر الله للإنسان مصدر رزقه مصداقا لقوله تعالى في كتابه الحكيم: [وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا] (54) كذلك قوله: [وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ] (56). ويقول كذلك: [هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ] (57).

ولقد ضمن الله للإنسان مصادر الرزق وسخرها له حتى يكفيه عن الجوع والعري. ووعده أن لا يجوع ولا يعرى في هذه الأرض ما لم يقصر ويقعد عن العمل فقال في قرآنه الكريم: [إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى] (58). وإذا كنا نرى الناس جياعا، عراة فذلك لتخليهم عن سنن الله عز وجل كما بين ذلك عمر رضي الله عنه في قوله: "إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة".

كذلك يجب أن تفعل الدولة مع رعاياها فتسعى لتوفير مناصب الشغل والقضاء على البطالة والقعود اللذين هما سبب لتخلف الأمم. فإذا كان الله تعالى قد أطعم خلقه من جوع وآمنهم من خوف فكذلك يجب أن يفعل الحاكم مع مواطنيه. إن الفهم الصحيح لقوله: **[أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ]** (59) لا يعني بأي حال إطعام الناس وضمان أمنهم دون عمل، وإلا فإن تلكم معجزة، فما يعنيه القرآن هو أن تفتح أمامهم مصادر الارتزاق وتسهل لهم سبل العمل والضرب في الأرض، وحتى تعليمهم صنعة أو حرفة وتوفير منصب الشغل لهم، ولا يحصل إطعام بغير عمل إلا لمن عجز عن الشغل أو حال بينه وبين ذلك عذر، فالدولة في القرآن الكريم مطالبة بمساعدة أبنائها على تعلم الصناعة والحرف مصداقا لقوله تعالى في القرآن الكريم: **وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ]** (60). وكذلك قوله: **[آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا]** (61).

إن القرآن بهذه الإرشادات والتعاليم يريد أن يبعث أمة عمل لا مكان فيها للقاعدين الكسالى، أمة تجعل العمل من الدين متى أرفق بالإخلاص لله، وبناء على هذا فإن الحاكم مسؤول عن القضاء على البطالة والمساعدة على توفير مناصب الشغل بشتى الوسائل والطرق كتعليم المهن والحرف وتسهيل سبل الكسب والضرب في الأرض.

ولقد راح القرآن يحث المؤمنين به فرادى على العمل، وجعله الشرط الوحيد للفوز في الدارين، الدنيا والآخرة، ولقد جاء القرآن بمفهوم

جديد للدين، فلم يعد الدين نسكا واعتزالا وهجرة لمشاركة الناس أعمالهم الدنيوية، بل صار الدين إيمانا بالله وعملا صالحا لفائدة الخلق، بل صار مفهوم الدين في القرآن كما فهمه رسول الله محمد(ص) : "الدين المعاملة". لم يعد بعد مجيء القرآن الدين حكر على فئة دون أخرى بل صار الناس جميعهم رجال دين لأن الدين والعبادة في نظر القرآن إيمان وعمل، والعمل دليل الإيمان، وحتى يبين الله عز وجل فضل العمل على القعود يقول في قرآنه الكريم: [**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**] [62]. لفهم الآية الكريمة نورد ما جاء في الأثر من أنه حلة الصلاة على تاجر تقي متنقل من بلد لآخر، فدخل المسجد، فصلى وهو بالمسجد رأى حمامة تأتي بالأكل في فمها من بعيد لتطعم أخرى عمياء بمخبئها، فقال الرجل لنفسه سأكف عن التعب وأبقى هنا، وأنّ الذي يطعم هذه الحمامة العمياء سوف يطعمني، فلما علم إمام المسجد قصته قال له: "أتريد أن تكون الحمامة العمياء ولا تريد أن تكون الحمامة النشطة الفاعلة للخير" فشكر الرجل الإمام وعاد بجد لتجارته.

هكذا علم القرآن أسلافنا فضل السعي على القعود، فأخرجوا للعالم حضارة أبهرته. إنهم علموا أن الله لا يحب الفارغ الصحيح، لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة، كما علموا أن البطالة تقسي القلب وتفسد المجتمع.

6 ـ عملية الإنتاج خلق للطيبات والمنافع:

لم يفرق القرآن بين الأعمال إلى عمل منتج وآخر عقيم كما فعل بعض المفكرين الاقتصاديين (الطبيعيون)، لكنه قسّمها إلى عمل صالح وعمل سيء، ولقد تضاربت آراء الاقتصاديين في تحديد العمل المنتج من غير المنتج، فمنهم من حصر العمل المنتج، في العمل بالأرض لا غير لأنه يرى أن الأرض هي وحدها القادرة على إعطاء أشياء لم تكن موجودة. وراح بعض آخر منهم يحصر العمل المنتج في الأعمال التي تؤدي إلى طرح أشياء مادية محسوسة يمكن أن تنتقل من شخص لآخر أثناء التبادل، بينما لا يعتبر عمل المعلم والطبيب كذلك في نظرهم، لذا قسموا الأعمال إلى عمل منتج وآخر خدمي. وذهب البعض أبعد من الفئتين السابقتين لأنهم صنفوا فروعا أكثر من الأعمال ضمن العمل المنتج حتى العمل بمختلف الفنون، فشاع الكلام بينهم عن إنتاج لوحة فنية، قصيدة شعرية أو قطعة موسيقية.

أما القرآن، فقد جاء تقسيمه بسيطا وفاصلا، فالعمل إما أنه صالح باعث للطيبات، محقق للخيرات والمنافع وإما أنه عمل سوء يلحق الضرر بالناس ويفسد المجتمع، فحسب نظرة الاقتصاديين يعد العمل بمعاصر الخمر أو مصانع السجائر عملا منتجا ما دام يوفر سلعا يتم تبادلها في السوق، بينما ينظرالقرآن إلى كليهما على أنه عمل سيء لأنهما يضرا بالفرد وبالمجتمع ولا يختلف اثنان في ذلك، وعلى هذا الأساس أحل القرآن أعمالا وحرم أخرى، وجعل العمل الصالح مبرورا والعمل السيء محظورا، لقد جاء في القرآن الكريم: **[وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ**

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ] [63]؛ وفق هذا وهذا فقط يكون العمل حلالا (منتجا) أولا، فإما أنه مانح للطيبات، باعث للخيرات فهو عمل مفيد منتج حلال، يأمر به الله. وإما أنه سيء يفشي الخبائث فهو حرام، ولم يترك القرآن عملية الفصل بين العمل الصالح والعمل السيء للإنسان بل وضع الموازين القسط لذلك والحد الفيصل في العديد من الآيات.

يقول القرآن الكريم: **[قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ]** [64]. بهذه الآية يحدد القرآن مجال السعي الإنساني الذي يقبله، فكل عمل يقوم به الإنسان ينتهي إلى توفير الطيبات وإكثارها هو عمل حلال يأمر به الله كما جاء في القرآن الكريم:**[يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا]** [65]؛ بهذه الآية يوجه القرآن المؤمنين به إلى تحري الأعمال، والقيام بما تتولد عنه الطيبات والمنافع فقط منها، وتنتهي الآية بالمطالبة بإتيان الأعمال الصالحة "واعملوا صالحا" فذلك للتأكيد على أن إبداع الطيبات من الأعمال الصالحة، وأن الله لا يقبل إلا العمل الصالح.

في آية أخرى يقول القرآن الكريم: **[يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلَالاً طَيِّبًا]** [66]؛ وهذا أمر للمؤمنين بتحري الطيبات وإبداعها والاستفادة منها دون غيرها، ولقد ضرب القرآن أمثلة كثيرة للطيبات وميزها عن الخبائث حتى يعين الناس في تحري العمل الصالح وإنتاج(*) الطيبات، لقد جاء فيه: **[وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا]** [67]، يقول كذلك: **[أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ**

---

* في الاقتصاد الوضعي الإنتاج هو عملية إبداع السلع بشتى أنواعها، قد تكون هذه السلع نافعة مفيدة ليس بها ما يلحق الضرر بالإنسان والمجتمع، وهذه هي الطيبات، وقد تكون مضرة بالفرد والمجتمع مثل الخمور والسجائر والمخدرات وما شابهها في الضرر وهي الخبائث.

وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ] [68]. ويقول أيضا: **[وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ]** سورة الحج، آية 30.

شيء آخر يعدّ عملا سيئا ولو ألحق بالطيبات، إنه الإسراف والتبذير، إن الله لا يقبل أن تفوق متعة الإنسان بالطيبات حدودها، وأن تصير هدفا في ذاتها، لقد قال تعالى في قرآنه: **[كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي]** [69]، أي يا أيها الناس إني أحللت لكم الطيبات فكلوا مما شأتم منها، لكن لا أقبل أن يتخم أحدكم بينما الآخر يطوى جوعا. كلوا أكلا معتدلا ولا تطغوا في الأكل أن تحرموا آخرين من الأكل وهو نفس المعنى الذي تحمله الآية الكريمة: **[وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ]** [70]. كذلك تقول الآية : **[كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ]**[71] وهذا تحذير من الله للإنسان وهو يأكل الطيبات من أن يستدرجه الشيطان إلى المعصية بأن يحوله عن هدفه الحقيقي فتستعبده اللذة فيكون من الظالمين.

كما أشار القرآن إلى العمل الصالح والطيبات، فإنه بيّن معالم العمل السيء والخبائث. تقول الآية: **[حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّه بِه وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ]**[72]. ويقول في موضوع آخر: **[يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ]**[73].

كل ما ذكرته الآيتين يعد من الخبائث والأعمال السيئة التي ينهى الله عباده عن إتيانها، ولقد بين الله الحكمة من التحريم إذ قال في قرآنه: **[يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ]**(74). إذا فالإثم والضرر هما الأصل في التحريم وإن اقترنا بمنفعة ما دام الضرر يفوق المنفعة.

ومما عده القرآن الكريم من الأعمال الصالحة التجارة، أي البيع والشراء بينما حرم الربا فقال: **[وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا]**(75). لكن القرآن لم يترك البيع والشراء من دون قيود وإحكام، بل وضع لها ضوابط لإنصاف البشر وإعطاء كل ذي حق حقه لتفادي المظالم. يقول القرآن الكريم: **[وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ]**(76). إن للآية معنى جلي واضح وهو الغش في الميزان والتطفيف في الكيل، حيث أن الإنسان الذي لا تمنعه خشية الله يعمل على ترجيح الكيل والميزان لفائدته في كل الحالات، بينما الآية لها معنى آخر يرمز إليها الميزان وهو العدل في المعاملات التجارية. أي أن يتناسب السعر مع الشيء المعروض للبيع مع تفادي الغش، والتدليس، وحسب النوعية فقط يرتفع السعر أن يهبط بحيث تتم المبادلة التجارية برضا الأطراف جميعها لتوفرها على العدل وتناسب ما يعطى مع ما يؤخذ. وقد يكون هذا بعض ما عبر عنه بعض الاقتصاديين "بالسعر العادل" كل هذا يتوافق مع قول القرآن: **[وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ]**(77).

كل ما ذكرناه ليس شيء عارض في الإسلام بل هو من صميم الدين، لذا يجب أن لا يغفل. لقد ركز شعيبا ـ عليه السلام ـ في رسالته إلى قومه على هذا الجانب كما جاء في القرآن: [**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ**][78]. نعم، ما كان شعيبا يخاف على قومه معرفة الله والتعبد إليه بالشعائر، بل كان يراهم بخير في هذا الأمر. لكنه كان يخاف على حياتهم الاقتصادية أن يشوبها العمل السيء والظلم فكانت رسالته اقتصادية جلية، إنه يخاف على قومه الظلم الاقتصادي، والتجاري فحذرهم من عذاب الله، ولقد جاء ردهم اقتصاديا كذلك إذ قالوا كما جاء في الآية: [**يَاشُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**][79].

إن مدين ظنوا أن الدين ليس له دخل في شئون المعاش وفي الاقتصاد. فاستغربوا من شعيب نصيحته فقالوا يا شعيب أدينك يتدخل في شئون معاشنا، وفي أموالنا وكيف نفعل فيها، أهذا أنت الإنسان الحليم الرشيد الذي يقول هذا.

نعم لقد استغربوا أن يوجههم الدين في حياتهم الاقتصادية، ونفس الأمر يستغربه الكثير في الوقت الحاضر. إن كل ما أوردناه مصدره القرآن الذي هو أوامر الله ونواهيه وليس هو استحداث بشر، وما يكون لبشر كان أن يأتي بشيء في الدين من عنده فيحلل ويحرم على هـواه : [**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ**

لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ][80]. فتشريع الله وحدة لا تتجزأ، من فصوله الجانب الاقتصادي حقيقة قائمة.

7 ـ الملكية في القرآن:

إن جوهر الاختلاف بين المذاهب الاقتصادية كان محله مفهوم الملكية وإطارها. فالرأسمالية رفعت كل القيود على الملكية الخاصة وفقا لمقولة "آدم سميث" في كتابه ثروة الأمم "دعه يعمل، دعه يمر". لقد ظنت الرأسمالية أن فتح مجال الحرية وزمام المبادرة كفيلان بعلاج المشكلة الاقتصادية. لكنه نظرا لفشل نظام الملكية الخاصة وحرية المبادرات عن معالجة المشكلة الاقتصادية بتفاقم مشكلات اجتماعية برز مبدأ الاشتراكية.

جاءت الاشتراكية رد فعل للرأسمالية، فألغت الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج الاقتصادية، وشلت جانبا من روح المبادرة نتيجة التخطيط المركزي، وقد كانت تظن أن هذا وذاك عاملان لعلاج ما لم تقدر الرأسمالية على علاجه، أما النتيجة فكانت الفشل أيضا.

كذلك الإسلام له مفهومه الخاص للملكية وإطاره المحدد لها، فالملك المطلق لله كما جاء في القرآن: **[أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ]**[81]. كما يقول: **[وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا]**[82]. وقال أيضا: **[لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ]**[83]. إذا فكل شيء في السماء أو الأرض ملك لله

وحده لأنه من خلقه مصداقا لقوله: [**لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ**](84).

أما الإنسان فهو مستخلف من الله في الأرض وكل ما امتلكه فهو منة من الله عليه، مصداقا لقول القرآن: [**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ**](85). إن الإنسان لا يملك إلا بتفويض من الله والمالك الحقيقي هو الله. إذا فهو مجرد خليفة لله، ملزم بطاعته يقول القرآن الكريم : [**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**](86). كما قال: [**هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ**](87).

نعم إن الإنسان حسب القرآن خليفة لله، فوّضه لينوب عنه في الأرض ويعمل حسبما يريد المالك الحق، وإن عصى أو كفر يلقى جزاءه المناسب. ومن شروط الاستخلاف أو الاستملاك حسن التصرف والتدبير. أما إذا كان سفيها يتصرف فيما بين يديه بالسوء مما يضر المجتمع فإن الملكية تنزع منه ليستلمها من هو أحسن تدبيرا. يستلمها الذي يجعلها تنفع خلق الله وذلك مصداقا لما جاء في القرآن: [**وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا**](88).

كذلك من شروط ملكية البشر أن يجعل الإنسان ما جعل الله تحت يده في خدمة أمته ومواطنيه فينفق في سبيل ذلك ملبيا أمر المالك الحق القائل في قرآن: [**وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ**](89). وقال أيضا :

[خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا][90]. المال والملك لله وما البشر إلا خلفاء لله لينظر كيف يعملون، وهم مطالبون باتباع أوامر الله فيما يملكون، فيجعلونه في خدمة الصالح العام، وأن يأتوا منه ذوي الحاجة والمحروم **[وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ]**[91].
فالله هو الأول الذي أعطى وله الملك المطلق.

إن الملكية في القرآن استخلاف وابتلاء وليست تجبر واستعلاء، وإنها وسيلة للعمل الصالح وليست وسيلة للترف والبذخ والتمايز مصداقا لقوله تعالى: **[ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما أتاكم]**. إنها مسؤولية أمام الوطن والعباد وأمام الله.

وما دام أن الملك لله تعالى الذي لا يسأل عما يفعل وعباده يسألون فإن القرآن الكريم يتدخل بوضع حدود لما في يد الإنسان. فالإنسان ليس حرا في التصرف في أمواله،بل يسأل عن كيفية استعمالها، فهو مطالب بالاعتدال في الإنفاق وفقا للآية الكريمة: **[وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا]**[92]. كذلك رأينا كيف كانت رسالة شعيب إلى قومه مدين، وكيف استنكر منه هذا القوم التدخل في استخدام أموالهم والتصرف فيها.

لقد قالوا كما جاء في القرآن الكريم: **[يَاشُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ]** [93].

بل يطلب القرآن الحجر على ممتلكات السفهاء، الذين يسيئون الاستعمال لما جعل الله بين أيديهم أو يعطلونه، فالملكية وسيلة لإشباع حاجات الأمة، ومتى حرم المجتمع من منافع الملكية لسوء التدبير وسفاهة الرأي فإن القرآن يطلب بنزع الملكية من صاحبها لتستعمل استعمال حسنا، يفيد البلاد والعباد. في هذا يقول القرآن الكريم: [**وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا**][94].

obeikandl.com

8 ـ العدالة الاجتماعية في القرآن:

إن للجانب الاقتصادي في حياة الإنسان أهمية كبرى، وما دام القرآن جاء لإخراج الناس من ظلام الجهل والهمجية إلى نور الهداية والعدل فإنه وقف في وجه الظلم الاقتصادي بشتى أنواعه.

يقول القرآن الكريم : [**وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**][95]. هكذا يحرم القرآن على المؤمنين أن يستولوا على أموال بعضهم بعض دون حق يخول لهم ذلك. في آية أخرى يبين هذا الحق إذ يقول: [**لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ**][96]. هذه الآية تبين أن حق انتقال الأموال بين الأفراد مرهون بالتبادل التجاري الحر. والمبادلة التجارية هنا لا تقتصر على تبادل خيرات مادية فقط، بل تفيد كذلك تبادل الخدمات إلى جانب تبادل الطيبات. وعملية التبادل هي الشرط الوحيد الذي يجعل للشخص حقا في أموال غيره. فإذا غاب هذا الشرط، عد ذلك ظلم نهي القرآن عنه في قوله: [**وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**][97]. وقال عنه كـذلك: [**وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ**][98].

إن العدل هو أساس سلامة المعاملات الاقتصادية، والعدل مبدأ أولاه القرآن الكريم أهمية بالغة، ذكره بمعنى الكيل والميزان في العمليات التجارية يقول القرآن الكريم: [**فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ**][99]. يأمر القرآن حسب الآية بالعدل وإعطاء كل ذي حق حقه

دون بخس أي طرف من المتعاملين الاقتصاديين. فالأجير يوفى حقه بأجر عادل يناسب كمية ونوعية العمل الذي أداه كما يوفى الزبون كيله وميزانه من البائع، ويعد إقصاء مبدأ العدل ظلما وإفسادا في الأرض كبيرين. تأكيدًا لهذا المبدأ يقول القرآن أنها: **[وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً]**(100). كما يقـول : **[وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ]**(101).

مما يعده القرآن ظلما اقتصاديا، عدم التفات ذوي السعة والفضل إلى ذوي الفاقة والاحتياج. جاء في الآية الكريمة: **[أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ]**(102). ويقول في حق فئة من العباد نالت عذاب الله لأنها بخلت بما عندها، وأمسكت عن اليتيم والمسكين العطاء الذي يخفف عنهما **[كَلَّا بَل لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ]**(103). وبهذه الآيات السالفة يشير القرآن إلى بعض المظالم الاقتصادية ويحاربها وليس ذلك على سبيل الحصر، بل هو تحديد للمبدإ العام القاضي بمحاربة المظالم الاقتصادية كيف ما كان نوعها. وهذا هو شأن القرآن في معالجة الأمور إنه يضع المبادئ والخطوط العامة، أي الأصول، لتكون معالما لتمييز المظالم عن غيرها في مختلف الأزمان والأوطان. فمبدأ القرآن الكريم: **[لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ]**(104). فالظلم ظلمات يوم القيامة، لا يبيحه الله تعالى لأي كان، لقد حرم الله الظلم على نفسه في الحديث القدسي فكيف يبيحه لعباده !؟

فالقرآن لا يبيح ظلم العباد مهما كانت الأعذار، فلكل المواطنين نفس فرص الكسب والسعي دون أي تمييز جهوي أو عرقي، أو ديني. فالناس سواسية كأسنان المشط أمام الحاكم، لا فرق بينهم في الحقوق والواجبات وتتاح لهم نفس الفرص.

إن تكافؤ الفرص هذا لا يعني المساواة المطلقة بين الأفراد، فهذا أمر يتنافى مع مبدأ القرآن الكريم: [**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ**][105]. فبالعلم والعمل يتميز الناس بعضهم عن بعض لكن القرآن أرسى مبدأ العدل الذي هو أشمل وأرحم من المساواة، فالمساواة قد يكون فيها ظلم للناس، بينما العدل نقيض للظلم. يقول الله تعالى في قرآنه الكريم: [**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**][106]. بهذه الآية يتقرر أن العدل مبدأ راسخ في القرآن، يأمر الله عباده باتباعه، فالعدل يعد الوسيلة الناجعة لمحاربة الظلم بشتى أنواعه.

لقد اشتهر رسول الله (ص) بالعدل في حياته وذلك اتباعا لأمر ربه الذي أمره في قرآنه، فقال : [**وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ**][107]. والعدل الذي يتكلم عنه القرآن، عدل شامل يمس كل نواحي الحياة الاجتماعية، يلتزم بتحقيقه كل فرد على مستواه. فالحاكم أول مسؤول عن العدالة في المجتمع، تلك العدالة التي تبعث الاطمئنان في روح الأفراد، فتفجر قدراتهم عطاء وخيرات، وتوفر فيهم أسباب ازدهار الحياة. فالإنسان بطبعه هكذا، متى أحس العدل، اطمئن وأصبح

سبب بناء وتشييد، ومتى أحس الظلم والبخس صار سبب هدم وتخريب. لهذا أكد القرآن الكريم على الحكام التزام العدل وتحريه فقال: **[وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ]**(108).

والعدالة حق لكل أفراد المجتمع من دون أي تمييز كان، جاء في قوله تعالى: **[كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى]**(109). فلا الحسب ولا النسب، ولا الجاه ولا المال بالأمور التي يخضع لها العدل، بل كل ذلك هو الذي يخضع للعدل. فهذا علي كرم الله وجهه ورضي عنه، يحاكم يهوديا وجد سيفه عنده، أمام الفاروق، فيحكم عمر بن الخطاب لليهودي فيشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله، ويرجع السيف إلى علي بعد أن صدر الحكم لصالحه.

إنه القرآن يأمر أتباعه بالعدل في كل الظروف قولا وعملا فيقول: **[يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ]**(110). ويقول كذلك: **[وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا]**(111).

9 ـ التكافل الاجتماعي والاقتصادي في القرآن:

تزخر آيات القرآن الكريم بشروط البناء الحضاري، بما تتضمنه من نصوص تحث على التكافل الاجتماعي والاقتصادي معا. جاء القرآن، فوجد العرب قبائل شتى متنازعة، لا تتوقف لها حرب هنا إلا وتشتعل أخرى هناك بشهادة القرآن الذي يقول: **[واذكروا نعمة الله عليكم**

إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا]. فلما جاء العربَ الإسلامُ استطاع القرآن أن يوحدهم ويجعل منهم مجتمعا متماسكا قويا في كل جوانب الحياة، كل ذلك حدث، لأن آيات القرآن نفخت فيهم التماسك والتعاضد.

يقول القرآن الكريم: **[يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ]**[112]. لما عرف العرب هذه الآية تخلوا عن عصبية العرق والتراب وأذعنوا للحق وحده الذي جمعهم على التقوى والعمل الصالح، فقيمة كل فرد هي رهن صلاحه وإخلاصه لمجتمعه ليس إلا.

ولما صلحت نظرتهم للإنسان، ذكرا كان أو أنثى صار سهلا عليهم أن تتوحد كلمتهم استجابة لدعوة القرآن الكريم إذ يقول : **[وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا]**[113].

هذه دعوة من القرآن للتخلي عن كل العصبيات والأنانية والإذعان لما جاء في كتاب الله وحده والالتفاف حوله لجمع أسباب القوة والتماسك. لقد آخى القرآن بين من توحدوا حوله، فجمعتهم أخوة الإيمان **[إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ]**[114]. فصار حقا عليهم أن يتعاونوا على البناء والتشييد بكل أنواعه. والتعاون مبدأ قرآني أساس حث الإسلام أتباعه عليه فقال: **[وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ]**[115].

إنه تعاون في القمة، لأنه تعاون على الخير والصلاح فقط، إنه لا يمكن أن يكون تعاونا على الشر والظلم مهما كان الطرف الآخر لأن المسلم تعاهد مع الحق وتحالف معه. فهو في نصرة الحق على الفرقة والظلم. إن المسلم مطالب بإطفاء نار الفتن والفرقة والتطاحن، فكيف له

أن يكون وراء الظلم مناصرا له، يقول تعالى في قرآنه: [**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**][116]. والإخوة في هذه الآية هي إخوة الحق، فإن كان الحق مع غير المسلم، تكون النصرة دائما للحق، وإرجاع الظالم إلى رشده واجب.

كما يوفر القرآن شروط البناء الحضاري والتماسك الاجتماعي فإنه يحذر من أسباب التدهور والتمزق الاجتماعيين فقال: [**وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ**][117]. وقال أيضا: [**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**][118]. إن السبب الأساسي للتمزق الاجتماعي يكمن في التخلي عن الحق وإتباع الأهواء، عند تفرق الأمة شيعا وأحزابا تتنازع، فيصيبها الفشل ثم الوهن، لهذا السبب أكد القرآن على التمسك بالدين والاعتصام بحبله فقال: [**أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**][119]. وإقامة الدين تكون بالامتثال لقوله تعالى: [**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**][120].

أما التكافل الاقتصادي فقد خص بجانب وافر من القرآن، يقول تعالى: [**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**][121]. إن النفقة في سبيل الله وإصلاح المجتمع واجب ديني لو أمتنع الأفراد عن أدائها لأصابهم الضرر والهلاك. إن النفقة في سبيل الله من شأنها أن تمنع الكثير من المفاسد الاجتماعية والأخلاقية كما أن من شأنها أن تمنع

الوطن من الأخطار الخارجية، لهذا فإن الامتناع عن الإنفاق في سبيل الله تكون له أضرار جسمية وهلاك للمجتمع.

في أية أخرى يقول القرآن الكريم: [**وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ**][122]. يذكر القرآن المسلم بحقيقة الأموال التي بين يديه. إن كل ما بيد الإنسان ملك لله تعالى، منى به عليه وأستخلفه فيه، لذا يجب وأن ينفقه فيما يرضيه ويأمر به، ولا يمسكه عن ذوي الحاجة من أبناء المجتمع، لقد جعل الله الإنفاق في سبيل الله لفائدة الفقراء واليتامى والمساكين واجبا يُثاب عليه. من أداه، ويعاقب من تخلى عنه. يقول تعالى: [**وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**][123]. وقال أيضا: [**قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً**][124].

وترغيبا في الإنفاق في سبيل الله أورد القرآن آيات كثيرة تبشر المنفقين بالفوز والجزاء بالجنة. يقول تعالى: [**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ**][125]. وفي آية أخرى يقول: [**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**][126].

إن الإنفاق في سبيل الله يخول للإنسان أن يبلغ الدرجات العليا عند ربه، فيضاعف الله له أجره ويكون من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون إذا كانت صدقتهم لوجه الله ليس إلا، لا يريدون من ورائها هدفا دنياويا آخر. وفي هذا يقول تعالى: [**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**

ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ][127].

أما من بخل بما منحه الله، وأمسكه عن مجتمعه فإن القرآن قد توعده العذاب الأليم، يقول تعالى: **[وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]**[128]، ويقول كذلك: **[وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى]**[129]. إن الإمساك عن الإنفاق في سبيل ذوي الحاجة من أفراد المجتمع بعد تكذيبا بالدين كما جاء في القرآن الذي يقول: **[أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ]**[130].

فإذا خان المسؤول أمانته، واستغل منصبه لتحقيق أهدافه فإنه يعتبر قد ظلم الوطن والمواطنين، وعليه فإن الله يتوعده يوم اللقاء فيقول: **[وَعَنَتْ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا]**[131]. إن من كانت الخيانة هي عمله، فإنه يخيب يوم القيامة فمنال الدنيا من الآخرة لا يساوي جناح بعوضة. وأن ما يضيعه من جزاء يوم القيامة يعمر قلبه حسرة وألم، فما بالكم إذا ضيع الجزاء ونال العقاب.

ولقد نهى الله عز وجل عن إسناد الأمانة والمسؤولية إلى غير أهلها فقال: **[وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا]**[132]. أي على الحاكم أن يتحاشى إسناد المسؤوليات إلى من هم دونها كفاءة أو

إخلاصا، فالحاكم يسأل عن فعله هذا. وإذا كان يعلم بعدم صلاحية الرجل ثم يعينه مسؤولا، فإنه مخطئ يحاسب على ذلك.

كذلك فإن على الشعب أن لا يمنح ثقته، إذا خيّر، لمن هو دون المسؤولية كفاءة وإخلاصا فالسفيه الذي لا يحسن التدبير والتصرف ينهي الله عز وجل عن منحه الثقة وتقييده زمام المسؤولية. فالثقة لا تمنح إلا للإنسان الكفء الأمين، الذي يؤدي أمانته بإخلاص وعدل لأن الله عز وجل يحب المقسطين إذ يقول: **[إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ]**(133).

إن إسناد المسؤولية إلى غير أهلها يعد خيانة عواقبها وخيمة، ويعتبرها الرسول (ص) من علامات الساعة، كذلك فإن من سنن الله أن تكون علة تصدع الحضارات وزوال الأمم وطي صفحتها من التاريخ في تسليم مقاليد أمورها إلى أناس مترفين سفهاء. إذ يقول الله تعالى في كتابه العزيز: **[أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا]**(134).

أما إذا صلح الحكام والمسؤولون فإن ذلك يعد من أسباب الرقي والصلاح لهذا السبب قال عثمان: "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن". إن المسؤول الصالح بإمكانه توجيه الأمة توجيه الأمة توجيه سديدا حكيما يفتق طاقات الأمة وإبداعاتها، ويدفع بها إلى مقدمة الشعوب. يقول الله عز وجل: **[وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ]**(135).

إن المسؤولية أمر عظيم، قد تكون لصاحبها خزي وندامة، أن تكون له ظلا يوم القيامة. فمن بين الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة الإمام العادل أي المسؤول المخلص الذي يعدل بين رعيته ويقودها بإخلاص ووفاء. إن فضل المسؤول الصالح العادل على غيره فضل عظيم. إنه رجل صالح يأمر بالعدل وهو على كل صراط مستقيم، أما غيره فهو كل عليه. لقد قال فيهما عز وجل: [**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**][136].

تختلف وسائل الإنتاج الاقتصادية عن وسائل الإنتاج العائلي في كون الأولى في حاجة إلى يد عاملة ورأسمال وسوق للتبادل بينما الثاني لإشباع الحاجات العائلية لا أكثر.

المبحث الثاني

الوقائع والأفكار الاقتصادية في السنة النبوية الشريفة

1 ـ العمل مصدر لكل القيم:

حيث أن وفرة الإنتاج وتنوعه سبب لكل رفاه اقتصادي واستقرار اجتماعي، فإن الإسلام أولى عناية كبيرة لتوفير أسباب نمائه كما ونوعا، ولا يخفى على أحد الدور الأساسي الذي يلعبه العمل الاجتماعي في هذا المجال، فالعمل ـ كما يؤكده الاقتصاديون ـ أساس كل نفع وأساس كل قيمة أو طيب ينعم به المجتمع.

إن أي منتوج لا يعدو أن يكون ثمرة للعمل، فهو يحتوي ضمنا عملا حيا وعملا ميتا، حتى وسائل الإنتاج البسيطة منها والمعقدة، فعلاقتها بالعمل وحاجاتها إليه أكيدان. فوق أنها ثمرة للعمل، لولا هو ما وجدت بدءا، فإنها لا تؤدي وظيفتها إلا والعمل الإنساني يديرها أو يضبطها ويراقب سيرها. وأخيرا فالعمل وحده هو القادر على تجديد قدرات الآلة والمحافظة عليها عن طريق الصيانة، وتحديثها بواسطة الإبداع.

بعد هذا فلا غرابة أن يكون العمل في الإسلام المقياس الأول والأخير الذي يحدد تفاضل البشر بعضهم عن بعض سواء في الدنيا أو في الآخرة. فقيمة الإنسان في الإسلام رهن عمله والنفع الذي يقدمه لأفراد مجتمعه، فلا المال ولا النسب يقدم المرء أو يرفعه إذا أخره أو

أحطه عمله، فإذا كان رسول الله (ص) لا يغني عن أهله من الله شيئا فكيف لإنسان أن يغني عنه نسبه، فقد قال (ص): "من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه"[1].

وقد حكى (ص) عن رجل كثير المال، ظن أنه يكون أعلى درجة في الجنة من عبده وخادمه بناء على هذه الميزة فقال: "إن رجلا دخل الجنة فرأى عبده فوق درجة ! فقال: يارب هذا عبدي فوق درجتي؟ قال: نعم جزيته بعمله وجزيتك بعملك"[2].

وسيرة رسول الإسلام (ص) تأكيداً لهذا وما استكبر كثير من المشركين ذوي الجاه والمال والنسب إلا لكون الإسلام يجعل قيمة الإنسان في العمل، لقد كانوا يقولون له كيف نتبعك، ونراك أتبعك الأرذلون. أي قليلوا المال والنسب من الفقراء والمساكين.

لقد عاتب الله عز وجل الرسول (ص) في قرآنه الكريم في سورة عبس لأنه تولّى عن أعمى طمعًا في هداية قوم من الأشراف حسب العرف الجاري أنذاك، لأنهم أصحاب مال ونسب.

بعد هذا، وبعد وعي السلف الصالح للعلاقة بين الإسلام والعمل، لا غرابة أن يقسم عمر بن الخطاب فيقول: "والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منّا يوم القيامة"[3].

2 ـ العمل تدين وعباده:

والتاريخ يبين لنا أن الله عز وجل يرفع القوم الذين يعملون فـــي هذه الدنيا وإن كانوا ملحدين، بينما يتأخر المسلمون الذين عطلوا دينهم وركنوا للقيود.

إن العمل في الإسلام دين مادام في سبيل الله، فهو يكفر عن المرء ذنوبه، ويقربه من الدرجات العليا عند الله، فقد يحوز العامل بعمله على مرتبة لا ينالها المعتزل الصائم القائم.

لقد ورد عن الرسول ρ أنه قال: لمن بات كالاً بات مغفورا له[4]، ليس هذا فحسب، فإن من الذنوب ما لا يكفرها غير العمل والسعي على العيال ليس إلا إنها ذنوب لا تكفرها صلاة ولا صوم ولا حج إن لم يكن العمل والسعي على العمال قد كفرها. فقد ورد عن النبي ρ أنه قال: "إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها صوم ولا صلاة ولا حج، وإنما يكفرها سعي الرجل على عياله"[5].

كما سبقت الإشارة إليه، فإن العمل والسعي في سبيل المجتمع ونفع أفراده يبلغ بالفرد الدرجة التي ينالها المجاهد في سبيل الله أو المرتبة التي ينالها القائم الليل، الصائم النهار. فقد أكد رسول الله ρ هذا فقال: "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل، الصائم النهار"[6].

نعم إن الإسلام دين، العمل فيه عبادة يحدد منزلة العبد عند ربه. وبقدر العمل والتضحية في سبيل المجتمع يكون الجزاء. فالرجل يعمل لعياله، وهم منه وهو منهم فيكون جزاؤه تكفير ذنوبه. أما إذا زادت تضحيته وامتد نفعه إلى الأرملة والمسكين وهم ذوي الحاجة في المجتمع فإن جزاءه يكبر ليبلغ جزاء الشهداء أو جزاء القائم الليل، الصائم النهار.

وقد حرص رسول الله(ص)على تثبيت هذه القيم عند الصحابة. فكان يغتنم الفرصة من حياة أصحابه وأعمالهم ليغرس هاته القيم في ضمائرهم فتصير مثلهم الأعلى ومبدأهم في الحياة.

عندما أراد أحد الصحابة الاعتكاف والخلوة لله، ظانا بأن ذلك خير له عند الله، قال له رسول(ص): "لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل له من صلاته في بيته سبعين عاما"[7]. وفي سبيل الله هنا معناها في سبيل المجتمع. فالعامل الذي ينفع غيره من عمله خير من الناسك المعتزل، العالة على الناس وما يؤكد هذا أن رسول الله(ص)رأى رجلا يتحامل على الناس، فسأل عنه، فقيل عابدنا. فقال(ص): "من يؤكله؟" قالوا كلنا يؤكله. فقال(ص): "كلكم خير منه"[8].

وهؤلاء جمع من الصحابة يمر بهم شاب قوي، يسرع إلى عمله، فيحتقرون منه فعله من أجل الدنيا. فقالوا: يا رسول الله؛ لو كان هذا في سبيل الله. فاغتنم رسول الله(ص)الفرصة ليؤكد موازين وقيم دين الإسلام التي لا تفصل الدين عن الدنيا، فكان جوابه فاصلا إذ قال: "إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه

يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو سبيل الشيطان"[9].

وشاء القدر أن يكون الرسول(ص)وصحبه في سفر لتتهيأ ظروف وتحدث وقائع يعي من خلالها الصحابة فضل العمل ومنزلته في الإسلام. وما كان أحد الصحابة، ظل نهاره صائما في ذلك اليوم الحار وصاحبه إلى جنبه مفرط لم يؤد من الشعائر إلا ما وجب عليه. يكون أكثر منه أجرا آنذاك. ولو علم ذلك لطار شوقا لمعرفة السبب في ذلك لكون الحكمة ضالة المؤمن.

عن أنس قال: "كنا مع النبي في سفر، فمنا الصائم، ومنا المفطر. فنزلنا منزلا في يوم حار، أكثرنا ظلا صاحب الكساء، فمنا من يتقي الشمس بيده. فسقط الصوّام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب. فقال(ص): "ذهب المفطرون بالأجر كله"[10].

3 ـ الإسلام حرب على البطالة ودعوة للعمل:

بقدر ما حرض الإسلام على العمل وحث عليه فإنه ينهي عن البطالة. وعليه عمل على القضاء على الخمول والاستسلام للقعود والراحة. فقد قال(ص): "إن الله لا يحب الفارغ الصحيح، لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة"[11]، فالإسلام لا يقبل أن يعيش القادر على العمل، والمعافى كلا على غيره. فمن واجب هذا الإنسان أن يؤدي عملا ينفع به نفسه ومجتمعه.

في حديث آخر يقول(ص): "البطالة تقسي القلب"[12] أي أن البطالة تنزع من القلب خشية الله والرأفة بالبشر، فيصير البطال لا يبالي بحدود

الله ولا بحقوق الناس، فيكون عضوا مريضا في المجتمع من الضروري علاجه.

وحتى يدفع الإسلام المرء الصحيح المعافى للعمل، فإنه يحرم عليه الارتزاق من الصدقة، فقد قال(ص): "الصدقة لا تحل لغني، ولا ذي مرة سوى"[13].

ويقول كذلك: "لا يجوز للغني الذي عنده ما يكفيه ولا لذي قوة، المستوي الأعضاء، القادر على الكسب أن يأخذ من مال الزكاة"[14].

وهكذا يفصل الإسلام في قضية البطالة، فكل إنسان وجد عملا وهو قادر عليه ثم لم يعمله حبا في القعود والراحة فإنه تحرم عليه الصدقة والزكاة سواء. وحتى يكرّه البطالة للناس ويبيّن شرّها، عملت السنة النبوية على الترغيب في العمل والتحبيب فيه.

فإذا كان العمل مهنة يستحي بها الأشراف فيسندوها إلى الخدام والعبيد في بعض المجتمعات القديمة، فإن الرسول(ص)حرص على أن يبين للمسلمين أن العمل كان ممارسة الأنبياء الرسل لكسب أرزاقهم. فلقد قال(ص): "كان زكريا عليه السلام نجارا"[15]. وبين كذلك(ص): "أن نبي الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده" [16].

وليبين رسول الله(ص)محبة الله عز وجل للعبد المؤمن المحترف قال: "إن الله يحب العبد المؤمن المحترف"[17]. وهذا معناه أن الله عز وجل يحب المؤمن الذي يتخذ حرفة عملا، فينفع نفسه وأهله ومجتمعه، ويتعفف عن المسألة. فالمؤمن لا يأكل طعاما أحلى مما يأكله من عرق

جبينه كما قال رسول الله(ص):"ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده"[18].

ومن أجل التعفف عن المسألة، فإنه لا يضر الإنسان المسلم أن يقوم بأي عمل حلال. فليس في الإسلام عمل وضيع وعمل رفيع. فكل عمل ينفع المجتمع ويفيده مرغوب فيه إلا القعود. لقد قال(ص): "والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا أعطاه الله فيسأله أعطاه أو منعه"[19].

وقد دلت سيرته(ص)أنه كان يشيد بالعاملين من أصحابه ويشجعهم، كما كان ينهى عن القعود والمسألة. لقد رأى يوما(ص)أنصاريا أخشوشنت يده فسأله: "ما هذا الذي أرى في يدك"، فيجيب الأنصاري أنها آثار عمله. فيقبل ρ يده ويقول: "هذه يد لا تمسها النار"[20]. وفي رواية : "هذه يد يحبها الله"[21].

وفيما نقله حكيم بن حزم قال: سألت رسول الله فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: "يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى"[22].

4 ـ الدولة مسؤولة عن توفير مناصب العمل:

لم يكتف الإسلام بالترغيب في العمل والنهي عن البطالة، بل جعل من حقوق الرجل على مجتمعه أن يوفر له منصب عمل يكفيه عن السؤال، ويمكنه من العيش الكريم. وما يدل على هذا أن رجلا قويا

معافى جاء يسأل النبي(ص)شيئا من المال، فقال له الرسول(ص): "أما في بيتك شيء؟". قال: "بلى، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه الماء". قال(ص): "ائتني بهما"، فأخذهما رسول الله(ص) بيده، وقال من يشتري هذين؟ "قال رجل: "أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاه إياهما، وأخذ الدرهمين فأعطاهما للرجل وقال: "اشتري بأحدهما طعاما فانبذه على أهلك، واشترى بالآخر قدوما فأتني به" فأتاه به. فشد فيه رسول الله(ص) عودا بيده ثم قال: اذهب فاحتطب وبعه ولا أرينك خمسة عشر يوما". ففعل، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضهما ثوبا وببعضها طعاما، فقال(ص) : "هذا خير لك من أن تجيء نكتة في وجهك يوم القيامة"[23].

إن من مهام الدولة في الإسلام أن تعمل على تسهيل ما من شأنه أن يوفر مناصب شغل لصالح العاطلين، وأن تقدم لهم كل المساعدات الممكنة، ليس هذا فحسب، فإنه من واجبها أن تجتهد للقضاء على البطالة، وتوفير شغل لكل مواطن يتوافق مع استعداداته، وإن هي قصرت في ذلك ولم تعمل لتحقيق ذلك، فتكون قد قصرت في واجبها.

بعد هذا، ألا يكون الإسلام مفجرا للطاقات، ومنبعا الثروة والإنتاج؟ إن الإسلام لم يكن يوما معطلا بل عطّل. إنه يعمل من خلال رجال وعوه، فرضوه شعائرا وشرائعا، فعملوا به. ولا يعتقد أحد، ما دام من عند الله، فإنه يعز من يدينون به، حتى ولو بدون عمل، وهذه أمته

في المؤخرة، وما أخرها إلا قعودها وتواكلها فلم يغني انتسابها إليه عنها شيء.

فالإسلام بحق دين الرفاه والإنتاج والتحرر إذا شغّل وألتزم أصحابه بتطبيق تعاليمه، فالعمل فيه عبادة، والبطالة مهلكة.

5 ـ عملية الإنتاج خلق للمنافع:

لم يفاضل الإسلام بين مهنة وأخرى، وبين عمل وآخر، فيكون هذا عملا منتجا، والآخر عملا عقيما، ومن ثم فإنه لا يقبل فكرة الطبقة العقيمة، التي قال بها الطبيعيون. فالأساس في الإسلام هو النفع الذي ينتجه الأفراد، فلا فرق بين فئة وأخرى ما دام الكل يقف على ثغرة من ثغرات الأمة، فالمزارع في حقله، والعامل في ورشته، والتاجر في دكانه، والمعلم والمتعلم، وكل من يسدي نفعا للمجتمع كلهم سواء، لا تفاضل، ولا تمايز بينهم، فالعبرة بالعمل والنفع، وأنفع الناس للناس هو خيرهم.

لم يوص الرسول ρ بعمل دون آخر، أو مهنة دون أخرى لقد كان يقول: "اعملوا فكل ميسر لها خلق له"[24]. ويقول أيضا: "إن الله خلق كل صانع وما صنع". وفي حديث آخر: "إن الله خلق كل صانع وصنعته"[25].

لقد أوصى الإسلام بسد كل الثغور، وإنتاج كل المنافع ما أمكن ذلك، ومن أجل هذا فإنه كان يشجع على الزراعة، والتجارة والصناعة

وكل عمل نافع، أليس هذا وعيا بمخاطر التبعية، وفهما سديدا لمقولة: "لا خير في أمة تأكل مما لا تنتج وتلبس مما لا تنسج".

لقد قال (ص): "إن الله يحب العبد المحترف"[26]. وقال أيضا: "التمسوا الرزق في خبايا الأرض"[27]. وبيّن كذلك(ص)أن "زكريا عليه السلام كان نجارا"[28]. كل هذه الأحاديث تحبيب للعمل بالصناعة.

وبخصوص النفع الذي يقدمه التاجر الصادق الأمين قال(ص): "التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء"[29]. وقد اشتغل رسول(ص)بالتجارة فضلا على أن التجارة وسيلة ارتزاق حلال فإنها تقدم نفعا كبيرا، لابد منه للمجتمع.

وقال(ص): "من نصب شجرة فعهد على حفظها والقيام عليها حتى تثمر كان له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل"[30]. وفي هذا أيّم تشجيع للعمل بالزراعة.

فالاقتصاد في الإسلام يقوم إذن على تقسيم العمل بين أفرادى المجتمع، تقسيم يقوم علىاستعدادات الأفراد ومهاراتهم، يسمح فيه للأفراد أن يختاروا العمل الذي يناسبهم ويكونون أكثر نفعا به للمجتمع دون أدنى إكراه، وما يدل على هذا قوله(ص):"اعملوا فكل ميسر لما خلق له". فلا يفضل عمل عملا آخر إلا بالنفع الذي يقدمه للمجتمعإذ يقول(ص)"منزلتك عند الله بقدر منزلتك عند الناس"[31]. ومنزلتك عند الناس هنا

تفهم منزلتك عند المجتمع. ولهذا عندما سئل(ص)عن الكسب الطيب قال: "عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور"[32].

كل ما سبق يدل على أن كل عمل نافع هو عمل منتج، إذ العمل المنتج هو العمل الذي تتولد على إثره الطيبات، أو يتم تبادلها بواسطته. وعليه يكون الحديث قد شمل كل نفع يقدمه الفرد لمجتمعه.

لقد كان رسول الله(ص)يوصي أصحابه والمسلمين من بعدهم فيقول: "إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم الساعة حتى يغرسها، فليغرسها فله بذلك أجر"[33]. في هول قيام الساعة، ربما ظن الصاحبة أن الرسول(ص)ينصحهم بالصلاة، بالذكر، بأي شعيرة. إلا أن ينصحهم بعمل الدنيا فهذا محال. لكن حرص الإسلام، على أن ينفع الناس بعضهم بعض هو فوق كل شيء. ونعتقد أن أي شعيرة تعبدية ما هي إلا وسيلة لتنمية روح التضحية الاجتماعية من أجل العطاء والنفع. لقد حرص النبي(ص)على أن يكون الإنسان المسلم أكثر نفعا في هذه الحياة، وأن يشمل نفعه كل ذي حاجة من إنسان وحيوان. وأن يكون ما ينتظره من عمله هو أجر الله قبل كل شيء، ومن ثم يكتسب ما نسميه التضحية الاجتماعية التي هي أساس تقدم المجتمعات وإرساء الحضارات.

يقول رسول الله (ص): "ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان من أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له

صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يزرؤه أحد إلا كان له صدقة"[34].

وقال أيضا: "على كل مسلم صدقة. قالوا يا نبي الله فمن لم يجد؟ قال: يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: يعين ذا الحاجة الملهوف، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة"[35].

فالمسلم رجل نافع ليس للإنسان فحسب بل لكل خلق الله. وبهذا الصدد نذكر بالرجل الذي دخل الجنة لأنه سقى بنعله كلبا عطشانا، وقصة المرأة التي دخلت النار لأنها حبست قطة بالبيت فلم تطعمها، ولم تتركها تخرج لتصيب من رزق الله خارجا.

6 ـ بالحلال والحرام تفرق الأعمال:

لم تفرق السنة النبوية بين العمل المبدع للمنافع المادية، والعمل الموفر للمنافع المعنوية كما رأينا. وعليه ليس في الإسلام عمل منتج وعمل غير منتج، أو طبقة منتجة وطبقة عقيمة. بيد أن الإسلام ـ من خلال أحاديث الرسول (ص) ـ يؤكد أن من الأعمال ما هو حلال مباح يرضاه الله، وما هو حرام محضور يسخطه الله. فعمل الإنسان من أجل الارتزاق قد يكون حلالا أو حراما، وما يفصل بين هذا وذاك هو طبيعة العمل (العمل كوسيلة) والغاية من العمل (ثمرة العمل)، فحتى يكون العمل حلالا يجب أن تكون طبيعته وغايته من الحلال. والهدف من كل هذا هو ضمان النفع الحقيقي للفرد والمجتمع في آن واحد.

لقد قال رسول الله (ص) آمرا المسلمين بالتزام السبيل الحلال في اكتساب الرزق الحلال ونهيهم عن انتهاج الطرق الحرام والكسب الحرام: "...فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، جدوا ما حل ودعوا ما حرم"[36].

وحتى يبين (ص) العمل الحلال من العمل الحرام منه راح الإسلام ينهى عن كل عمل تكون طبيعته مضرة بالفرد والمجتمع (وطبيعة العمل، أي العمل كوسيلة نقصد به أيضا مصدر الكسب والارتزاق). قال (ص): "من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار"[37].

وقد علّم رسول الله (ص) المسلمين أن كل ذي مال سوف يسأل عن ماله: "من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه"[38]. أي هل أن العمل الذي ساعد على الكسب هو حلال أم حرام؟

وعن الرجل الذي يكسب رزقا أو مالا بغير حق، أو بطريقة غير حلال يقول (ص): "إن من يأخذه (المال أو الرزق) بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة"[39]. ومن أجل سد الطرق اللامشروعة للكسب قال (ص): "لعن الله الراشي والمرتشي والرائش"[40]. والرائش هو الذي يمشي بين الراشي والمرتشي.

وقد اعتنت السنة النبوية بإظهار جوانب عملية من الكسب المنبوذ إسلاميا، فعندما كان (ص) بالسوق مر برجل يبيع طعاما فأعجبه ظاهره فأدخل (ص) يده فيه فوجد بللا فقال: "ما هذا يا صاحب الطعام؟" قال: "أصابته السماء"ـ يريد أن المطر نزل عليه ـ، فقال(ص): "فهلا أبقيته فوق

الطعام حتى يراه الناس؟" وفي رواية "من غشنا فليس منا"[41]. وهكذا يعلم الإسلام التاجر أن يبيّن ما يبيعه ولا يخفى من عيوبه شيء. فإن أخفى عيبا كان مخطئا غشاشا. فالبيع بالخيار في الإسلام وبلا غش، لقد جاء عن الرسول (ص) قول: "من باع بيعا لم يبينه لم يزل في مقت الله ولم تزل الملائكة تلعنه"[42]. فلو وعى التجار هذا الحديث وعملوا به لكان لهم خيرا من نوافل الشعائر، واتقوا بذلك مقت الله وغضبه.

فضلا عن الغش، فإن الإسلام ينهى أن يبيع الإنسان شيئا ليس عنده لما قد يترتب عن ذلك من ضرر يلحق بأحد الأطراف. فلقد قال (ص): "لا تبع ما ليس عندك"[43]. ونهى أيضا على أن يبيع رجل فوق بيع رجل آخر فقال (ص): "لا يبيع بعضكم على بيع بعض"[44]. فقد حرص النبي على أن تسري المعاملات التجارية وفق قاعدة عامة تتمثل في لا ضرر ولا ضرار لما جاء في الحديث: "لا ضرر ولا ضرار، من ضار ضرر الله به، ومن شاق شق الله عليه"[45].

إذا كان النبي نهى عن بيع ما ليس عند المرء درءا للغش والاحتيال، فإنه نهى كذلك أن يستبق الرجل إلى الباد (الذي يأتي بتجارة ولم يدخل بها السوق بعد، فهو لا يعرف حقيقة قيمتها في السوق) فيستقبله خارج السوق، فيبتاع منه بأسعار مجحفة نظرا لجهل الباد بحال السوق. فلقد قال(ص): "لا تلقوا الركبان ولا يبيع حاضر لباد". فقيل لابن عباس: "ما قوله لا يبيع حاضر للباد؟ قال : "يكون سمسارا"[46]. وفي قول آخر يتبع المحدث:"فإن تلقاه إنسان فصاحب السلعة فيها بالخيار إذا ورد السوق"[47].

فإذا كان الحاضر ابتاع من الباد، فإن للأخير (صاحب السلعة) أن يتم الصفقة التجارية أو يلغيها إذا دخل السوق وعلم بظروفها وأكتشف تضليل الحاضر له واستغلاله لجهله.

وإذا كانت وساطة السمسار لا تؤدي نفعا حقيقيا لأحد الطرفين: الشاري والمشتري، وكانت مجرد وساطة لا تقتضيها ضرورة فإن الرسول ρ قد نهى عنها. فالعمل في الإسلام اقتناء لضرورة اجتماعية. إذ لا بد وأن يترتب عن عمل العامل نفع مادي أو معنوي. أما أن يأكل الرجل بواسطته من عرق الغير دون أن يقدم لهم نفعا حقيقيا فهو ليس من الإسلام، ويكون عمله طفيليا ليس إلا فعمل كهذا لا يؤدي إلا إلى الارتفاع الأسعار بقدر ما يكتسبه السماسرة. لقد قال ρ بشأن هذا: "لا يبيع حاضر لباد، دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض"[48].

من المصادر غير الحلال كذلك، الرجل يأخذ الرزق والمال من غير حق، أي أنه يوكل إليه واجب مقابل حق، فيأخذ الحق ولا يؤدي الواجب كاملا، وهذا ما يؤكده الحديث: "إن من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة". أما العامل بحرفة ما، أي حرفة كانت، فإن النبي يريد منه أن يتقن عمله. وهذه ميزة العمل الاجتماعي في الإسلام. كون العمل اجتماعي في الإسلام، فهذا يعني أن الإنسان يعطيه كل مقدوره ومهارته ليكون منتوجه على أعلى جودة ممكنة يقدم بهـا للمجتمع، وأن يستجيـب للمجتمع كما يحب صاحبـه أن يستجيب لنفسه. فلقـد قال النبـي(ص): "إذا عمل أحدكم عمـلا أحب أن يتقنه"[49]. وفي حديث آخر: "إن الله يحب إن عمل أحدكم عملا أن

يتقنه"[50]. وعليه فكل عمل يقوم به الإنسان بتهاون ولا مبالاة ويغيب فيه الحرص والتفاني في الإتقان فإنه من غير الإسلام.

كذلك فإن العمل لا يكون حلالا إذا كانت غايته محرمة في الإسلام فـ"الله طيب لا يقبل إلا طيبا"[51]. فكل عمل يترتب عليه ضرر يلحق بالفرد أو بالمجتمع بوجهة نظر الإسلام هو حرام. فالعمل الحلال هو الذي يكون منتوجه طيبا أو نفعه بيّنا. وانطلاقا من هذا نرى أن الإسلام يستعمل كلمة الطيبات بدل البضائع، فالبضائع تتمثل في كل الخيرات المادية التي تتبادل في السوق الحلال منها والحرام سواء. أما في الإسلام فلا يتبادل الأفراد ولا ينتجون إلا الطيبات. بهذا الصدد يقول الله عـزّ وجل: **[كلوا من طيبات ما رزقناكم]** ويقول الرسول ρ: "وعليكم بالمطاعم ما طاب منها"[52].

وفي الأحاديث التالية يتبين أن الإسلام يحرم كل عمل مضر بالمسلم وغير المسلم. فما دام أن منتوج العمل مضر بالإنسان وأن الإسلام حرمه فالإشتغال به حرام. فلقد قال(ص): " من حبس العنب أيام القطاف حتى يبيعه ممن يتخذه خمرا فقد تقحم النار على بصيرة"[53]. وفي حديث آخر: "حتى يبيعه من يهودي أو نصراني أو ممن يتخذه خمرا فقد تقحم النار على بصيرة"[54].

إن توزيع الثروة في المجتمع الإسلامي وفق معيار يبين أساسين. فإذا كانت الثروة التي يراد توزيعها في ثمرة للعمل أصلا فإن حظ الأفراد

يكون تابعا لكفايتهم ومقدار العمل الاجتماعي الذي بذلوه. فليس من العدل أيضا أن يكون حظ من عمل نصف يوم كالذي عمل يوما كاملا، وليس من العدل أيضا أن تكون حصة العمل المعقد مساوية للعمل البسيط (العمل المعقد هو الذي يتطلب جهدا أكثر ومهارة أعلى). أما إذا كانت الثروة محل التوزيع منحة من الله أكثر من كونها ثمرة للعمل (عمل الإنسان) فإنها توزع بناء على حاجات الأفراد. ولا يعتبر هذا تعديا على مبدأ العدالة ما دام أن الثورة هذه هبة من الله ومثال ذلك المناجم الطبيعية.

وما يؤكد هذا من سنة الرسول(ص)هي سيرته. لقد "أعطى الرسول (ص) في الغنائم الرجل سهما، و"الفارس سهمين أو ثلاثة أسهم"[55]. إذ أن العدالة تقتضي أن يتم توزيع ما حصل بالعمل بناء على الكفاية في العمل. و"أعطى في الفيء العزب حظا والأهل حظين"[56]. وهو تجسيد مبدأ العدالة أيضا بشأن الخيرات التي لا دخل لعمل الإنسان في إنتاجها.

ومن حرص السنة النبوية على عدالة التوزيع أنها أكدت كثيرا على حقوق العمال، أما رب العمل فهو الذي يتحكم أصلا في عملية التوزيع. لقد قال (ص): "أعطوا الأجير حقه قبل أن يجفّ عرقه وأعلمه أجره وهو في عمله"[57].

فالإسلام يشترط أن يعلم الأجير ما يدفع إليه مقابل عمله قبل أن يبدأ في شغله، والهدف من هذا ضمان حريته في القبول أو الرفض "استأجر أحدكم أجيرا فليعلمه أجره"[58]. أما إذا أدى عمله (كما يوصيه

إسلامه) فعلى المستأجر أن يعجل بدفع الأجر ولا يتماطل في أدائه، فمن بين الذين يخاصمهم الله يوم القيامة "...ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يوفه أجره"[59].

وبشأن أجرة العامل وما يجب أن توفيه له، يبين (ص) ذلك في حديثه التالي: "إخوانكم خوالكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل مالا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم"[60]، وفي رواية أخرى: "ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم"[61].

ونعلم من هنا أن التفاوت الاقتصادي بين العامل ورب العمل لا يبلغ درجة تجعل الثاني يأكل مأكولا لا يعرف العامل إلا اسمه وصورته، أو يتخم السيد من أكل اللحم والفاكهة الطرية، بينما العامل لا يجد إلى مذاق ذلك سبيلا.

كذلك ليس من العدل في الإسلام أن يلبس السيد الثوب اللين الدافئ الجديد، بينما يلبس عامله ثوبا خشنا باليا ولا يريد الإسلام من هذا أن يقيم مساواة بين الإثنين، بل يريد أن يجعل حظا للرجل من طيبات ما يناله سيده، فليس من طيبات الله ما هو حكر لبعض الناس دون البعض الآخر فالإسلام لا يقبل التمايز المقصود، ولا أن يجعل هذا طعام ولباس هؤلاء وذلك طعام ولباس أولئك، بهذا الصدد قال (ص) لأبي ذر بشأن خادمه: "أطعمه مما تطعم وألبسه مما تلبس"[62].

زيادة على هذا فالإسلام لا يقبل أن يكلّف العامل عملا فوق طاقته، أو عملا غير متفق عليه بدءا من هذا أوصى عليه الصلاة والسلام: "من استأجر أجيرا فليعلمه عمله"[63].

أما إذا كلفه فوق العمل المتفق عليه، وكان ذلك لابد منه، فعليه أن يعينه بالعمل أو المال حسب اقتضاء الأمر، وقد بين (ص) أن شر الرعاة أي أرباب العمل أولئك الذين يرهقون عمالهم بتكليفهم ما يعيبهم ويضعفهم فقال: "شر الرعاة الحطمة الذين يزيدون وقت العمل فيحطمون عمالهم بما يعيبهم من ضعف وإرهاق"[64].

7 ـ الإدارة والمسؤولية في نظر السنة النبوية:

المسؤوليات في الإسلام يتقاسمها أفراد المجتمع "كلكم مسؤول عن رعيته"[65]. وأفضل الناس من أدى ما أنيط إليه بأمانة. والمسؤولية مستويات، لا يتولاها إلا من هو أهل لها. فمن وجهة نظر الإسلام المسؤولية أهلية وأمانة. أهلية؛ فلا يتولاها إلا من كان قادرا عليها أصلا. أمانة؛ أن يتقى الله في حقها. لقد قال (ص) : "إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة" فسأل رجل عن إضاعتها فقال (ص) : "إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"[66].

ولقد أكد رسول الله (ص) على أن لا يولى رجل مسؤولية وفي المسلمين من هو أصلح لها منه. فلا يكفي أن يكون الرجل قادرا على القيام بمسؤولية ما ليختار لها، بل يجب أن يكون أقدر الناس وأصلحهم

للمسلمين إذا تولاها. قال (ص) : "من وُلي من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين"[67]. وقال أيضا: "من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضى منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين"[68].

فالمسؤولية لا يمكن أن تكون محاباة، والمحاباة شيء فضيع يراه الإسلام. فهذا نبي الله (ص) يقول لعلي وفاطمة: "لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تلوى بطونهم من الجوع"، وقال أيضا: "لا آخذ لكما وأدع أهل الصفة تطوي"[69].

وإذا كانت المحاباة في الأمور البسيطة أمرا لا يحبه الرسول (ص)، فكيف بالذي يعيّن الناس على رأس مسؤوليات، بناء على المحسوبية والمحاباة، فمن كان هذا عمله فإن الله يتوعده على لسان نبيه بدخول جهنم. فلقد قال (ص): "من ولي من أمر المسلمين شيئا، فأمّر عليهم أحدا محاباة فعليه لعنة الله. لا يقبل منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم"[70].

أما بخصوص المسؤول الذي لا يكون أمينا في عمله، فلا يخدم رعيته ويغشها فهو رجل من أهل النار عليه غضب الله. فلقد قال ρ في حقه: "من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة"[71]. وقال أيضا: "ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت، وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة"[72].

ومن خيانة الأمانة أن تستعمل المسؤولية للقفز إلى المصالح الخاصة، أو استجابة لشراهة الطمع، إنه لا يجوز لأي مسؤول أن يستغل منصبه ومسؤوليته لتحقيق مآربه، فيجعل من مسؤوليته عملة يبادلها لتحقيق أغراض أو نفع خاص ليس من حقه. فلقد أرسل النبي (ص) رجلا إلى الصدفة ليجمع مال الزكاة، فعاد الرجل وقال: هذا لكم وهذا أهدي إليّ، فقال (ص) غاضبا: "ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول هذا لكم وهذا أهدي إليّ، فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينتظر هلا أهدي له أم لا..."[73].

ولا يجوز كذلك لمن ولاه الله على أموال الأمة وكنوزها أن يأخذ بغير حق ويستأثر لنفسه على بقية الأمة. لقد قال (ص): "من استعملناه على عمل ورزقناه فما أخذ بعد ذلك فهو غلول وخيانة"[74]. فما حدد له من أجرة هو ما يحق له، وما أخذ بعد ذلك فهو خيانة وظلم. وبهذا الشأن أيضا يقول (ص): "إياكم والقسامة، قيل: ما القسامة يا رسول الله؟ قال الرجل يكون في الغنائم بين الناس فيأخذ من حظ هذا وحظ هذا"[75]. وفي حديث آخر يقول: "وأنه من يأخذه بغير حقه (المال) كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون شهيدا عليه يوم القيامة"[76].

ويعد ترك العدل والعمل بالظلم رأس كل خيانة وغش للأمة، وعليه أمر النبي (ص) بترك الظلم والابتعاد عنه، فلقد قال (ص): "اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم"[77].

وهل من ظلم أكبر من أن يمنع الحاكم عن المسلمين حقوقهم، وإذا فعل ذلك فإنه خاطئ، وأن الرسول (ص) ينهاه عن ذلك فيقول: "لا تمنعوا عن المسلمين حقوقهم فتكفروهم"[78]. فرأس كل الفتن في المجتمع هو ظلم الحاكم وتركه للعدل.

ولقد راح الرسول (ص) يشيد بعمل الإمام العادل، فعمل الإمام العادل أفضل من نسك الناسك في أهله مئة عام كما أكده النبي (ص) فقد قال: "لعمل الإمام العادل في رعيته يوما واحدا أفضل من عبادة العابد في أهله مائة عام"[79].

لقد عاش (ص) قدوة للصحابة والمسلمين من بعدهم، لقد كان عادلا فيهم، يقاسمهم الشدائد والمحن فيكون حظه أعظم. ففي أحد أيام الجوع والشدة، التقى(ص)بجماعة من أصحابه "تكسو وجوههم الصفرة، وأجسامهم العناء وقلة الطعام، يشتكون إليه من الجوع ويكشفون عن بطونهم التي يشد كل منهم عليها قطعة من الحجارة ليسكت جوعتها. فيبتسم الرسول (ص) ولا يعزيهم بكلمات في ساعات الجوع الكافر لا تغني ولا تطعم، فيكشف لهم بطنه فإذا به قد شد عليها قطعتين من الحجارة الصماء"[80].

لقد كان نبي الإسلام يرى نفسه المسؤول الأول عن كل ذي حاجة فيقول: "من ترك كلا فليأتي فأنا مولاه" وقال أيضا: "من ترك ضياعا فعلي ضياعه"[81]. وقد روي عنه (ص) قوله : "أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، من ترك مالا فلورثته، ومن ترك دينا أو ضياعا فإليّ وعليّ"[82].

ويتضح من الأحاديث السابقة أن الحاكم أو الدولة مسؤولة عن كل عاجز كلّ، فهي تتولى إطعامه وكسوته وإيواءه بما يحفظ كرامته ويكفيه الحاجة إلى التسول.

8 ـ في التكافل الاجتماعي:

أما الشكل الاقتصادي للتعاضد الإسلامي فقد أوردته أحاديث كثيرة للنبي ρ، فالإسلام لا يعتبر المال خالصا لصاحبه، ما دام صاحبه يعرف ذي حاجة وجائع وعار حتى يوفّ حق هؤلاء عليه. إن ملكيته المال نسبية، فما دام في المجتمع من يبيت على الجوع ويظل على العري، أي أنه محروم من ضروريات الحياة، فلا مال لأحد حتى ينعدم أمثال هؤلاء لقول رسول الله (ص): "إذا بات مؤمن جائعا فلا مال لأحد"[90]. والإنفاق في حالة كهذه واجب وليس مستحبا فحسب. إذ لو أن فردا واحدا بات جائعا وسط المجتمع وهم يعلمون به، فإن الله عز وجل ورسوله يتبرءان منهم كما جاء في الحديث: "أيّما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا برئت منهم ذمة الله ورسوله"[91].

فالمسؤولية فردية، وواجب كل فرد أن يدفع الجوع والعطش عن المجتمع قدر امكانه دون انتظار أو اتكال على غيره، صحيح أن الدولة مسؤولة قبل الجميع لكن مسؤولية الأفراد تظل قائمة لقوله(ص)كذلك: "ليس منا من بات شبعان وجاره جائعا"[92]. ويقول كذلك: "ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم"[93]. فلو علم شخص أن جارا له بات جائعا، وكان قادرا على إطعامه ولم يفعل فإن المجتمع يتبرأ منه على لسان نبيه (ص).

فالتعاضد الإسلامي يفرض على الفرد ولا يخيره أن يطعم ويكسو من هم بحاجة إلى ذلك ما دام قادرا على ذلك، وإن لم يقم بذلك يكون قد قصر اجتماعيا ودينيا، فالحديث التالي يقول فيه(ص): "المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه ومن تركه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه، وكسوته فقد أسلمه"[94].

ومن يسلم أخاه المسلم فإن الله يتولى سؤاله **ويجعل** من القضية قضيته الخاصة، فلقد جاء في أحاديث النبي(ص)أن الله عز وجل يقول في حديث قدسي: "يا ابن آدم مرضت فلم تعدني! قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني! قال: يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمتك عبدي فلانا فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني! قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه. أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي"[95].

9ـ السنة ومواجهة الأزمات الاقتصادية :

إن ما قيل في التعاضد الاجتماعي لحد الآن متعلق بفترات الاستقرار الاقتصادي. أما إذا ضربت النوازل بالمجتمع، وحلت به أزمات اقتصادية فإن السنة تقدم ما يسعف الأمر في انتظار معالجة الأمور علاجا من الجذور.

فإذا كان أفراد المجتمع لا تخلص لهم أموالهم وقد بات فرد منهم يطوي بطنه جوعا، فكيف أن تخلص الأغنياء أموالهم وسواد الأمة يئن تحت وطء الغلاء والندرة والبطالة. إن رسول الله (ص) في ظروف كهذه يقف مناديا: "من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له"[96].

فمن واجب الأغنياء، وهذه هي الحال، أن يبذلوا من أموالهم بكل سخاء ما يدفع الأزمة ويبعث الأمل، لقد ورد عنه ρ أنه قال: "إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم، فإن هم جاعوا وعروا وجهدوا فبمنع الأغنياء، وحق على الله تعالى أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه"[97].

إذا كان الأغنياء مطالبين بدفع الأزمة وفق حديث رسول الله (ص) فإنه لا يسمح لأي فرد أن يستغل الظروف ليزداد غنى على حساب تفقير وتجويع الآخرين.

ليس هذا فحسب، بل على أفراد المجتمع أن يتقاسموا الأزمة حتى تتراص صفوفهم وتتمكن وحدتهم مما يبعث الثقة لدى الجميع، فالعدالة في الإسلام تقاسم للرخاء وتقاسم للشدة، وحظ الجميع من هذا وتلك كل حسب عمله وطاقته، لقد جاء في الحديث عن الرسول (ص): "إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم"[98]. إنها صفات المجتمع المسلم عند النوازل كما يصفها (ص).

ولقد أولى الإسلام عناية بليغة لبعث روح التضحية والسخاء في أفراده لتخليصهم من الأنانية وحب الذات والدينار وبالتالي يخلصهم من الخطيئة والتعاسة معا، لقد قال (ص): "الدينار رأس كل خطيئة"[99]. وقال أيضا: "تعس عبد الدينار والدرهم"[100].

فالإسلام إفراد لله بالعبادة ومن ثم فحبه فوق كل حب فلا غرابة أن يحب المسلم المال ويسعى لكسبه ليتقرب به إلى الله ويعبر عن حبه له، أما أن يحب المال للمال فهو ليس من الإسلام.

عن أبي ذر قال خرجت مع رسول الله نحو أحد يوما فقـــال: "يا أبا ذر، فقلت لبيك يا رسول الله. فقال: "الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة، إلا من قال كذا وكذا، عن يمينه وشماله وقدامه وخلفه ـ وقليل ما هم". ثم قال: "يا أبا ذر" فقلت: نعم يا رسول الله بأبي أنت وأمي. قال : ما يسرني أن لي مثل أحد أنفقه في سبيل الله، أموت وأترك منه قيراطين" قلت أو قنطارين يا رسول الله. قال بل قيراطين"، ثم قال: يا أبا ذر أنت تريد الأكثر وأنا أريد الأقل"[101].

وفي حديث آخر قال (ص): "ما يسرني أن عندي في مثل أحد هذا ذهبا. أموت وعندي منه دينارا إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا" وطوح بيديه يمينا وشمالا وخلفا"[102]. من الحديثين يعلم النبي (ص) المسلمين لماذا يحبون المال ويسعون لكسبه، فهم إذ يحبونه، إنما ليكون لهم معبرا لبلوغ رضا الله ومحبته، فكيف يسوغ لامرئ مسلم، بعد هذا أن يضيق على الناس بممارسة الاحتكار وإشاعة الغلاء لينال حضا من مال الدنيا.

إن من صفات المسلم الإنفاق والبذل ليردّ عن مجتمعه بلايا الفقر والعوز، والزكاة وحدها لا تكفي لسد واجب الإنفاق هذا ما بقي في المجتمع ذي حاجة ضرورية ينتظر الإسعاف، لقد قال(ص): "إن في المال حق سوى الزكاة"[103]. فالإنفاق واجب ما دام المجتمع في حاجة إليه، على كل فرد قادر كل حسب طاقته. وقد يأخذ الإنفاق أشكالا مختلفة، منها الضريبة.

لقد ورد أن رسول الله (ص) قال: "يا ابن آدم، إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف"[104]. أي أن كل شخص كان له فضل عن حاجته، والمجتمع في حاجة إليه ثم أمسكه فإن ذلك شر له، فإن حلت نازلة أو أزمة بالمجتمع، فكل من كان له فضلا عن حاجته، والمجتمع في حاجة إليه ثم أمسكه فإن في ذلك شرا له، فإن حلت به نازلة أو أزمة بالمجتمع، فكل من كان له فضل مسؤول، إلا من كان على كفاف أي عاجز. لقد جاء في الحديث عن النبي ر أنه قال: "ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم. فيقول الله تعالـــى: "وعزتي وجلالي لأقربنكم وأبعدهم"[105].

عن أبي هريرة أن رسول الله ر قال: "إن في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملَكا فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك" فقال: "لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قذرني الناس. قال فمسحه، فذهب عنه قذره وأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا. قال فأي المال أحب إليك قال الإبل فأعطي ناقة عشراء قال: بارك الله لك فيها. قال فأتى الأقرع فقال أي شيء أحب إليك قال

شعر حسن ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس. قال فمسحه فذهب عنه. قال فأعطي شعرا حسنا. قال فأي المال أحب إليك قال البقر فأعطي بقرة حاملا وقال : بارك الله فيها. قال فأتى الأعمى فقال أي شيء أحب إليك. قال أن يردّ علي بصري فأبصر به الناس، قال فمسحه فرد الله إليه بصره. قال فأي المال أحب إليك قال الغنم فأعطي شاة والدا فأتبع هذا وولد هذا. قال: فكان لهذا واد من الإبل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم. قال: ثم أنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين قد انقطعت به الحبال في سفري فلا بلاغ في اليوم إلا بالله وبك. أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال أن تعطيني بعيرا أتبلغ به سفري. فقال له: الحقوق كثيرة. فقال له : كأني أعرفك، ألم تكن أبرصا يقذرك الناس فقيرا فأعطاك الله. فقال إنما ورثت هذا المال كابر عن كابر. قال فإن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت. قال: وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد عليه هذا فقال: إن كنت كاذب فصيرك الله إلى ما كنت. قال: وأتى الأعمى في صورته وهيئته فقال رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي ردّ عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري. فقال قد كنت أعمى فرد الله إليّ بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لأجهدك اليوم شيئا أخذته لله. فقال أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي عنك وسخط عن صاحبيك"[106].

إن المال لله، ويخطئ من ظن عكس ذلك، لقد جاء في الحديث عن النبي (ص): "يقول العبد مالي، مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل

فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأبقى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه إلى الناس[107]. فخير العباد من أنفق في سبيل الله ليلقى ذلك ذخرا يوم القيامة. لقد قال (ص): "طوبي لمن عمل بعمله وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله"[108].

إن مكانة المنفقين عند النوائب والشدائد في سبيل درء الجوع والعري والبطالة عن المجتمع يحسدون عليها. فهم الآمنون يوم القيامة من عذاب الله. فكيف لا وإليهم تفزع الأمة جميعها وتهرع عندما تحل بها النوازل وتخنقها الأزمة. لقد ورد عن النبي(ص) أنه قال: "إن لله خلقا خلقهم لحوائج الناس، يفزع الناس إليهم في حوائجهم. أولئك الآمنون من عذاب الله"[109]. إنهم بحق أناس يحسدون، قال فيهم (ص): "لا حسد إلا في اثنتين: رجل أتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار. ورجل أتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار"[101].

لقد كان الصحابة يتسابقون إلى الإنفاق، فهذا أبو بكر يعطي كل ماله في سبيل الله فيسأله الرسول(ص): "ماذا تركت لأهلك" فيقول: "تركت لهم الله ورسوله"[111]. وهذا عثمان بن عفان يتصدق بتجارة جاء بها من بعيد، وقد عرض عليه تجار مكة أسعارا جد مغرية فيقول لهم: "إن الله أعطاني عشرة أضعاف ما تعطوني"[112]. وهذا أبو طلحة الأنصاري يقول للرسول (ص): "إن أحب أموالي إليّ بئر جاء، وأنه صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله تبارك، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال عليه

الصلاة والسلام: بخ، بخ ذلك مال رابح، ذلك مال رابح حبس الأصل وسبل الثمرة"[113].

وفق هؤلاء الصحابة وصدق عثمان إذ قال: "إن الله أعطاني عشرة أضعاف ما تعطوني" لقد ورد أن النبي (ص) قال: "إن الله عز وجل يقبل الصدقات ويأخذها بيمينه لأحدكم كما يربى أحدكم مهره أو فلوه أو فصيلة، حتى أن اللقمة لتصير مثل جبل أحد"[114].

10 ـ تكافؤ الفرص والتوازن الاجتماعي:

أمّا ولي الأمر فهو مطالب بالسهر على التوازن الاجتماعي قبل أي كان، وقد ألزمه الإسلام أن يساوي بين أفراد المجتمع، ولا يفضل بعض منهم عن بعض. فلقد قال رسول الله (ص): "الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى"[115].

ويلزم هذا الحديث ولي الأمر أن يجعل الفرص متكافئة بين الجميع في الكسب والعمل ولكل نواحي الحياة، فالفرص تمنح بالتساوي للجميع ويبقى تفوق هذا على ذلك رهن الكد والاجتهاد.

كذلك فعلى ولي الأمر أن لا يبخس أحدا في حقه في المال العام، فالمال العام يوزع بين المجتمع بما يراعي التوازن الاجتماعي والقضاء على التمايز الفاحش. لقد جاء في سيرة الرسول (ص) أنه قسم الغنائم على المهاجرين وأشرك في القسمة ثلاثة من الأنصار فقط كانت بهم الحاجة. ثم قال للأنصار: "إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم

وشاركتموهم في هذه الغنيمة". فقال الأنصار: "بل نقسم لهم أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها"[116]. لقد حرص (ص) في هذه القسمة على أن يعيد توازنا يقرب الناس من بعضهم بعض ويقيهم فتنة التمايز الفاحش.

ومن أجل تحقيق التوازن الاجتماعي دائما جعل الإسلام ملكية بعض الأموال ملكا عاما يشترك في ثمرته الجميع. لقد قال رسول الله (ص) "الناس شركاء في ثلاثة: "الماء والكلاء والنار"[117].

11 ـ السنة والحرية الاقتصادية :

لقد عملت السنة النبوية على تحرير المعاملات الاقتصادية من كل القيود التي من شأنها أن تعيق نمو الاقتصاد وتطوره، وقتل روح المبادرات. والمهم أن يكون المشروع المزعم القيام به نافعا للأمة غير محظور. فالناس بعملهم هذا ينفع بعضهم بعض. لقد قال (ص): "دع الناس يرزق الله بعضهم من بعض"[118]. بهذا الحديث يرسي الإسلام مبدأ الحرية الاقتصادية ويرفع كل الحواجز أمام الأشخاص للمبادرة والعمل.

فضلا عن توفير حرية اختيار العمل المشروع، ضمنت السنة النبوية حرية تسويق المنتجات دون أي تحديد للأسعار أو الأسواق. فالباعة أحرار في بيع منتجاتهم هنا أو هناك، بالسعر هذا أو ذاك. القيد الوحيد أن يكون الشيء المباع طيبا غير محظور، وبلغة العصر ضمن

الإسلام حرية السوق بموجب حديثه (ص) إذ يقول: "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا أو يقول أحدهما لصاحبه اختر"[119].

وعن التسعير ـ تحديد الأسعار ـ يقول (ص): "إن الله هو القابض الباسط والمغني والمرخص وإني لأرجو أن ألقى الله وليس لأحد منكم عندي مظلمة"[120]. وبهذا الحديث يقر(ص)أن في التدخل في شؤون السوق ظلم للناس يجب اجتنابه.

ومع التأكيد على حرية السوق ما دامت ظروفها وشروط عملها طبيعية، فإن الإسلام سمح للمسؤول بالتدخل لإعادة هذه الشروط والقضاء على ممارسات الاحتكار والتسبب في الغلاء تماشيا مع قوله (ص): "لا يحتكم إلا خاطئ"[121]. وكذلك: "من دخل في شيء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم كان حقا على الله تبارك وتعالى أن يقعده يوم القيامة بعظم من النار"[122].

يتضح مما سبق أن السنة النبوية قد أرست قواعد الحرية الاقتصادية أمام المتعاملين بالطيبات، وذلك ضمن شروط موضوعية. فإن غابت هذه الشروط، إثر أي تدخل خارجي من احتكار، غرر أو تدليس تدخل المسؤولون لإعادة هذه الشروط وضمان الحرية الموضوعية.

12 ـ الملكية وحدودها في السنة النبوية:

وتعتبر حماية الأموال والأملاك شرطا أساسيا لخلق الثقة وإنجاح مبدأ الحرية الاقتصادية، فالأكيد أنه إذا ما اطمئن المتعاملون على ما

يكسبون من نشاطهم فإن جهودهم تتضاعف، لهذا السبب حرص الإسلام على حماية الأموال والأملاك لأصحابها.

لقد جاء في حديثه (ص): "إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام"[123]. وقراءة ممعنة للحديث كفيلة بإبراز مدى حرص السنة على حماية الملكية الخاصة. وقد أقرنت الدماء بالأموال لإبراز هذه الأهمية، فمعلوم أن إراقة الدماء عمل بشع، شيّن لا يختلف فيه اثنان. وكذلك تعتبر السنة النبوية التعدي على أموال وممتلكات الغير.

يهدد الإسلام من تسوغ له نفسه أخذ أموال غيره فيقول نبيه (ص): "من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان"[124]. فأخذ أموال الغير بالباطل فعل حرام كما قال (ص): "كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه"[125].

وإذا كان الإسلام لا يسكت على أي ظلم كان، فإنه يشجع الأشخاص كذلك على حماية ممتلكاتهم والدفاع عنها. جاء رجل إلى رسول الله(ص) فقال: "يا رسول الله، أرأيت إن رجلا يريد أخذ مالي؟ قال فلا تعطه مالك. قال أرأيت إن قاتلني؟ قال: قاتله. قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: أنت شهيد. قال: أرأيت إن قتلته؟ قال : هو في النار"[126]. ويؤكد هذا الحديث قوله كذلك : "من قتل دون ماله فهو شهيد"[127].

إن حماية الأموال والممتلكات هي القاعدة العامة في الإسلام. لكن هناك استثناءات، بعضها تمليه القاعدة ذاتها، والبعض الآخر يمليه البحث عن تحقيق أو حماية المصالح العامة.

أما ما تمليه القاعدة نفسها (حماية الممتلكات) فهو ما فعله (ص) مع سمرة، وتلخص الحادثة في أنه كان لسمرة شجرة في حائط أنصاري وتضرر هذا الأخير من دخول سمرة عليه فاشتكى ذلك إلى رسول الله(ص) فطلب(ص)من سمرة أن يقبل بدلها أو يتبرع بها. فلم يفعل سمرة. فأذن النبي(ص)للأنصاري بقلعها، وقال لسمرة أنت مضار"[128].

نفهم من الواقعة أنه تضاربت الحرية المطلقة لسمرة مع حرية الأنصاري الذي كان يتضرر. وكان الفيصل أنه لا ضرر ولا ضرار، وعليه فإنه لا يسمح أن تضر ملكية بملكية أخرى.

والأساس في كل ما وقع هو حديث رسول(ص)الذي قال فيه: "إن قوما ركبوا سفينة فصار لكل منهم موضع. فنقر رجل منهم موضعه بفأسه فقالوا له ماذا تصنع. قال هذا مكاني أصنع فيه ما أشاء، فإن منعوه نجا ونجوا. وإن تركوه هلك وهلكوا"[129]. فمدى حرية التملك والتصرف بالملكية مرهون بمبدأ لا ضرر ولا ضرار.

أما الاستثناءات التي يمليها البحث عن تحقيق أو حماية المصلحة العامة فتستند إلى قوله (ص): "إن لله في المال حق غير الزكاة". من هنا يحق للحاكم أن يأخذ ويصادر من أموال الناس وممتلكاتهم إذا أملت الضرورة الاجتماعية والمصلحة العامة ذلك.

من هنا تشرع الضريبة التي تأخذ مـــن أموال الأغنياء لتحقيـــق

مصالح جمة للمجتمع من تعليم، وصحة، وأمن، وتمويل المرافق العامة الأخرى.

كذلك، قد تقتضي الضرورة مصادرة بعض الممتلكات بغرض تحقيق مصلحة عامة: كشق طريق أو تحقيق مشروع عام يعود بالنفع للبلد. وقد حدث أن صودرت أراض لبعض المسلمين بهذا الغرض وعوضت بأراض أخرى. وإذا ما تأكدت المنفعة العامة لهذه المصادرة فإن المالك لا يستطيع الرفض، بل يستحق التعويض العادل.

أمر آخر يستدعي الحظر على التصرف المطلق في الأموال والممتلكات، هو التصرف في الأموال والممتلكات بطريقة تضر بالمجتمع أو تمنع من الانتفاع منه. فالمبدأ في الإسلام أن الإنسان مستخلف ليس إلا. ويعد الإنسان مالكا حر التصرف في ماله متى سلك المسالك الطيبة في تصرفه، وإلا فإنه يفقد هذه الحرية. لقد ورد أن رسول الله (ص) قال: "إن الدنيا حلوة نضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون"[130]. وقال كذلك: "يسأل كل ذو مال عن ماله من أين أكتسبه؟ وفيما أنفقه"[131].

13 ـ الإصلاح الزراعي في السنة النبوية:

إن حرص الإسلام على تنمية الإنتاج الزراعي في ظل ظروف اجتماعية عادلة تبرزه التوجيهات والإصلاحات التي أرستها السنة النبوية. لقد حرصت هذه الأخيرة على إجلال النشاط الإنساني الطيب المتمثل في العمل، فجعلت منه المبرر الوحيد في حق التملك.

فالقاعدة الأساسية هي أن الأرض لله. لم يكن لأي فضل في إيجادها، فالأصل أن كل ملكية لها تنشأ بالحيازة ليس إلا، لذلك لا يعد مالكا للأرض، إلا من أحياها ولم يعطلها، فأما أن يستولى عليها لتعطل بعد ذلك، فهذا مرفوض في الإسلام.

لقد قال (ص): "العباد عباد الله والبلاد بلاد الله من أحيا من موات الأرض شيئا فهو له وليس لعرق ظالم حق"[132]. إذن فمن عمل بالأرض فأحياها وأخرج منها حبا ونخلا فهو أولى بها، ولا يحق لحائز أن يمنعه عنها.

وفي حديث آخر يقول (ص): "من أحيا أرضا ميتة فهي له، وليس لعرق ظالم حق[133]. يفيد هذا الحديث أنه إذا وجد شخص أرضا مهجورة غير مستغلة فأحياها لتخرج الزرع والنبتة تصير ملكا له لا ينازعه فيها محتجز.

وفي حديث آخر يقول(ص): "هذه الأرض لله والرسول ثم لكم، فمن أحيا أرضا ميتة فهي له وليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين"[134]. بمقتضى هذا الحديث يفقد كل شخص تملكه للأرض إذا أهملها ولم يستغلها مدة ثلاثة سنوات تتابعا. ولا يقبل منه أن يحتج بالحيازة لها. إنه إصلاح زراعي سبق كل الإصلاحات في هذا المجال، جعل عمر بن الخطاب يقولها صراحة: "من عطل أرضا ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له"[135].

ومن خلال السنة النبوية يكون الإسلام قد رفض نظام الإقطاع ونهى عنه، بمقتضى الأحاديث النبوية تكون الأرض لمن يعملها، ولا يجوز لحائز أن يؤجرها بالخمس أو أي قدر معلوم؛ فالأرض إما أن تعمل بها أو تتركها لغيرك يعمل بها. لقد جاء في أحاديثه(ص)قوله: "من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤجرها"[136]، وقال في حديث آخر: "من كانت له أرض فليزرعها أو ليزرعها أخاه، ولا يكريه بثلث ولا ربع ولا طعام معين"[137]. وفي رواية أنه سأل بعض أصحابه فقال: "ما تصنعون بمحاقلكم؟ قلنا نؤجرها على الربح وعلى الأوسق من الثمر والشعير. قال: لا تفعلوا، ازرعوها أو زارعوها أو امسكوها"[138].

نستخلص مما سبق أن الإسلام قد نهى عن تأجير الأرض للغير بمقابل أي كان نوعه، فإما أن يزرع الحائز أرضه، وإما أن يدعها لغيره فيزرعها دون مقابل، أما بخصوص تعطيل الأرض بحيازتها فالأمر نسبي عالجته السنة النبوية وفصلت في أمره في حديث ذكرناه. فالأرض إن عطلها صاحبها فوق ثلاثة سنوات فقد صاحبها حق حيازتها.

وعملت السنة النبوية على تشجيع منح الأرض للغير لاستغلالها وعدم تعطيلها ولو لسنة واحدة. فلقد بيّن (ص) لأتباعه أن ما يأخذونه من أجر في الآخرة هو خير من أي خراج معلوم، وعليه فالمؤمن العاقل لا يقبل بتعطيل أرضه (للفترة المسموح بها) ليفوته أجر الآخرة، لقد قال (ص):"لإن يمنح أحدكم أرضه خير من أن يأخذ عليها خراجا معلوما"[139].

وما يمكن استخلاصه من توجيهات السنة النبوية في المجال الزراعي يتلخص في نقطتين أساسيتين:

الأولى؛ وتتمثل في العمل على توفير ظروف تحقيق الإنتاج الوفير، فالمبدأ هو عدم تعطيل الأرض لإبقائها مواتا، بل التشجيع على إحيائها وتعميرها حَبا ونباتا وجنات ألفافا، وما السكوت عن تعطيل الأرض لأقل من ثلاثة سنوات إلا لضرورات أو أعذار قد تبين.

الثانية: وتطابق مقولة "من زرع حصد" لتبين من جهة تقدير السنة النبوية للمجهود الإنساني وتنفر من القعود والاتكال على الريع، وهو مبدأ لا شك يحرر القدرات والمبادرات ويوفر للمجتمع المنافع والطيبات.

وقد لاحظ الاقتصادي القدير "كارل كوتسكي" في كتابه المسألة الزراعية أن الفلاحين في المستثمرات الصغيرة يشتغلون بحماس وقوة بكرة وأصيلا لأنهم واعون أنهم يعملون لفائدتهم، إنهم يتكلفون التعب صباح مساء من سنة لأخرى إنهم الأكثر صبرا، والأكثر مقاومة وتحملا للعياء(140).

يريد هذا الاقتصادي أن يقول أن الإنسان إذا كان يعمل لحسابه اشتد اهتمامه برفع الإنتاج وتحسينه، ومن هذا المنطلق راح يحارب كل أشكال الإقطاع والاستغلال.

وتحقيقا للهدفين السابقين عمل عمر بن الخطاب على مصادرة جزء من أراضي بعض الصحابة. لقد كان رسول الله (ص) قد أعطى بلالا ابن الحارث جميع أرض العقيق، فلما كان زمن عمر قال لبلال: إن

رسول الله (ص) لم يقطعك لتحجزه عن الناس، إنما أقطعك لتعمل، فخذ منها ما قدرت على عمارته ورد الباقي[141].

نعم بهدف تحقيق وفرة في الإنتاج، والقضاء على الاغتراب في العمل فإن السنة النبوية تسمح بمصادرة الأراضي المعطلة لتمنح إلى الذين يثمروها ويحيوها. أكثر من هذا فهي تسمح بتحديد الملكية الزراعية تطابقا مع مبدأ الأرض لمن يعملها. فالأرض حسب السنة النبوية لا يجوز أن يؤخذ عليها أجر أو كراء، عن ابن سعيد الخذري نهى ρ عن المزابنة والمحاقلة، قال المحاقلة كراء الأرض، كذلك عن رافع خديج نهى ρ أن يؤخذ للأرض أجر أو حظ [142].

obeikandl.com